

امراتان

في
امراءه

د. ن. السعداوي



Bibliotheca Alexandrina



0112676



د . نوال السعداوي

امرأتان في امرأة...

رواية

دار الآداب - بيروت

اهل

الى كل فتى وفتاة في ربيع العمر ، لعلهما يدركان
قبل قوات الالوان ان طريق الحب ليس مفروشا بالورد ، وان
الزهور المغمضة حين تتفتح في ضوء الشمس لأول مرة
تسقط فوقها خراطيم النحل تمتص ورقها الناعم ؛ فاذا ما
استسلمت الزهور انسحقت ، واذا قاومت واستبدلت الورق
الناعم بشوك تافر مدبب ، استطاعت ان تحيا وسط النحل
الجائع .

نوال السعداوي

مارس ١٩٧٥

الطبعة السابعة

١٩٩٨

كان اليوم هو الرابع ، وكان الشهر هو سبتمبر ، وكانت تضع قدمها اليمنى على حافة المنضدة الرخامية ، وقدمها اليسرى فوق الارض . وقفة لا تليق على الاطلاق مع كونها امرأة (لم تكن امرأة بعد في نظر المجتمع) كانت لا تزال فتاة في الثامنة عشرة . ولم تكن ملابس الفتيات في ذلك الوقت تسمح لهن بأن يقفن هذه الوقفة . كن يرتدين شيئا اسمه « الجيب » يلتف حول الفخذين بشدة ويضيق عند الركبتين ، فاذا بالساقين ملتصقتان دائما ، اثناء الجلوس وانا اناء الوقوف ، بل وانا اثناء السير ، لم تكن الساقان تنفصلان ابدا في حركة الخطوات المألوفة للادميين ، وانا هي حركة دورية غريبة ، تنتقل بها قدما الفتاة فوق الارض وتظل ساقاها ملتصقتين وركبتيها ملتحمتين كأنما تضغط بين فخذيها على شيء تخشى سقوطه .

كانت (رغم كونها فتاة) تندهش ، وتود ان تعرف هذا الشيء الذي يمكن ان يسقط من اي فتاة في اللحظة التي تتباعد فيها ساقاها . وباستطلاع طبيعي كانت عيناها دائما تبحثان ، وتراقبان تلك الحركة الدودية التي تسير بها الفتيات .

لم يكن مظهرها يختلف كثيرا عن هؤلاء الفتيات ، سوى انها كانت ترتدي النطلون ، وساقاها كانتا طويلتين ، عظامهما

مستقيمة ، وعضلاتهما قوية ، تستطيع ان ندب على الارض وهي تمشي ، وتحرك ساقها بحرية ، وتفصل بينهما بثقة . دائما كانت تجد نفسها بين البنات ، في مدارس البنات ، وفي فصول البنات ، واسمها في كشوف البنات ، بهية شاهين ، التاء مربوطة مضافة الى اسمها ، تربطها بقوائم البنات كاللجام الجلدي .

ولان العقل البشري عاجز عن ادراك حقيقة الاشياء ، فقد اصبحت معروفة عند الجميع كبهية شاهين ، اما حقيقتها فلم تكن معروفة لاحد .

وكانوا يندهشون حينما تسير ، وتصبح هناك مسافة مرئية بين ركبتيها . وتراهم يحملقون في هذه المسافة ، فتتظاهر بانها لا تراهم ، وتواصل سيرها ، تحرك ساقها وتفصل بينهما ، وتدب بكل قدم على حدة فوق الارض ، بقوة تدرك بها عن يقين انها ليست بهية شاهين .

ذلك اليوم بلغت الثامنة عشرة . كانت تقف وقفتها الطبيعية (الشاذة في نظر المجتمع) قدمها اليمنى على حافة المنضدة الرخامية ، وقدمها اليسرى فوق الارض . وقفة لا تستطيع ان تقفها اية فتاة في ذلك الوقت ، ولا اي فتى ايضا . فهي تحتاج الى ساقين على قدر كبير من الثقة بعرونة عضلاتهما وقوة عظامهما واستقامتهما . وكانت سيقان الفتیان في معظم الاحوال معوجة (بسبب نقص التغذية في الطفولة) والفتى منهم لا يستطيع ان يرفع قدمه ليضعها على حافة المنضدة الرخامية العالية على ان تظل قدمه الاخرى فوق الارض . اقصى ما كان يستطيعه

الواحد منهم هو ان يرفع احدى قدميه ويضعها على حافة
المقعد الحسبي المنخفض . وكانت ترى معظم الفتيان يقفون
هذه الوقفة ، فهي عادية ومسموح بها للذكور فحسب .
الوحيد الذي كان يستطيع ان يرفع قدمه اكثر ليضعها على حافة
المنضدة هو الدكتور علوي استاذ التشريح . يمر بين المناضد
بمعطفه الابيض ونظارته البيضاء، وحين يقف عند اي منضدة
يخفض الطلبة اقدامهم المرفوعة على المقاعد ، ويقفون امامه
فوق ساقين تكادان تلتصقان . اما هو فيرفع قدمه عاليا في
الهواء ، ويضعها بكل نقة على حافة المنضدة ، وينظر مباشرة
في عيون الطلبة ، بعينين زرقاوين لا ترمشان .
حين كان يقف عند منضدتها لم تكن تخفض قدمها .
وحينما يصبوب اليها عينيه الزرقاوين تصوب اليه عينيهما
السوداوين . كانت تدرك ان اللون الاسود اشد قوة من
اللون الازرق وبالذات في العينين . الاسود هو الاصل ، هو
الجذر العميق الممدود في بطن الارض .
بين اصابعه البيضاء المحمرة كان يبرز الملقط المعدني ،
يمد ، في بطن الجثة المفتوح ، او الذراع ، او الساق ، او
الرأس ، او العنق ، ويمسك اي شيء بطرفيه الرفيعين
ويصبح بصوته الحاد : ما هذا ؟ دائما كان يلتقط اصفر
الاشياء وادقها . وريد صغير يجري تحت عضلة صغيرة ،
شريان رفيع مختلف في ثنية جلد ، عصب دقيق كالشعرة لا
يكاد يمسك بالملقط .
كن ثمانى فتيات حول جثة واحدة . وبينهن واحدة
او اكثر تحفظ اسماء الاوردة والشرايين والاعصاب عن

ظهر قلبه . فما ان يسال الدكتور علوي : ما هذا ؟ حتى
يرن في المشرحة صوت انثوي حاد ومنخفض في نفس الوقت
بالاسم الصحيح .

في كل مرة كان ينظر اليها ، متوقعا مرة ان ترد ، ان
تثبت له انها تعرف الاجابة لكنها كانت ترفض من حيث لا
تدري ان يمتحنها احد .

ذلك اليوم ، الرابع من سبتمبر ، كانت تحس ان شيئا خطيرا
سيقع في حياتها . كل سنة في مثل هذا اليوم ينتابها هذا
الاحساس . تفتح عينيها في الصباح وترى الشمس متوهجة
بشكل غير عادي ، وعيني امها اكثر حدة وبريقا ، وتهمس
لنفسها بصوت خافت : في مثل هذا اليوم حدث لامي شيء
خطير في نظري ، فقد ولدتني . وفي كل مرة تحس ان
شيئا خطيرا سيحدث في هذا اليوم ، اشد خطورة من
كونها تولد .

وحينما تهمس في اذن امها بهذا الخاطر تضحك تلك
الضحكة الانثوية المألوفة في ذلك الوقت ، المكتومة على
شكل شهيق متقطع وتقول : اعقلي يا بهية .

لم تكن امها تفهمها . وحين تراها في مكانها المعهود
في السرير تزحف يهدوء الى جوارها وتحتل مكان ابيها .
وكما كانت تراه يفعل تلف ذراعيها الصغيرتين حول عنقها
الكبير . كانت تدرك باحساس يقيني ان جسد امها هو الوحيد
الذي يفهمها . وتلتف ذراعا امها الكبيرتان حولها بقوة
غريبة تكاد تسحقها .

ذلك الحين كانت تقرأ قصص الاطفال والاساطير

الخرافية . في احدى تلك الاساطير كان هناك اله رهيب يعبدته الناس في مدينة سحرية . هذا الاله كان قادرا على ان يمسك بيده الواحدة اي شيء صلب ، ويضبط عليه ، ثم يفتح يده ، فاذا بها فارغة .

وكانت تنزعج امام هذه القوة التسي تهدد وجودها انزعاجا فطريا لم تفهمه في طفولتها ، لكنها اصبحت تفهمه بالتدريج ، وادركت من بعد انها كانت تفهمه منذ البداية ، منذ اللحظة التي اكتشفت فيها ان لها جسدا خاصا منفصلا عن جسد امها .

هذه اللحظة لا تغيب عن ذاكرتها . الالم فيها كان كالسكين الذي يمزق اللحم من اللحم . ومع ذلك لم يكن الما حقيقيا . حين دارت يدها دورة كاملة حول جسدها المستقل قفزت في الهواء قفزة عالية . كمصفور يطير من الفرع . لكنها لم تكن مصفورا ، وسقطت على الارض (بسبب الجاذبية الارضية) . منذ ذلك السقوط وهي تعرف وزن جسدها الخاص . تعرف انه اثقل منها . وان الارض تشده اليها بقوة اكثر من قوتها ، كذراعي امها تشدانها اليها مرة اخرى . وبكل قوتها تحاول ان تجعل جسديهما شيئا واحدا ، بلا جدوى ، فالانفصال الابدي حدث في لحظة مضت ولن تعود . منذ طفولتها وهي تحس المأساة فوق جسدها الخاص . تحملها معها في كل خطوة ، داخل كل خلية من خلاياها . رغبة جامحة في العودة من حيث أتت . في الخروج من مجال الجاذبية الارضية ، في ان تصبح بغير جسد له ثقل ، وله سطح ، وله حدود خارجية تفصله عما حوله . رغبة جامحة

في الدوبان كدرات الهواء في الكون ، والتلاشي الكامل
النهائي .

كانت تحملق في صورة الاله الخرافي ، وتدقق في
اصابعه الكبيرة وهي تسحق الاشياء بضغطه واحدة. وحينما
تنهض في الليل مفزوعة تتسلل الى سرير امها وابيها وتدس
جسمها الصغير بين جسميهما العاريين . لكن ذراعي ابيها
الكبيرتين تشدانها بعيدا عنهما ، بكل قوته يبعدها . اما امها
فتنظر اليها بعينين سوداوين تشبهان عينيها وتقول بصوت
حان : اذهبي الى سريرك يا بهية . لقد كبرت .

صوتها كان حانيا ، تحس حنانه كالاصابع الناعمة فوق
جسدها ، تدور برقة وحنان ، تدور دورة كاملة وكأنها ترسم
خطوط جسدها ، تحدده عن الكون الخارجي . وتبكي وحدها
في سريرها بسبب ذلك الحنان ، الذي يلامسها برقة ويؤكد
وجودها المستقل ، وكيانها الخاص المنفصل ، وتنشج ببكاء
مكتوم يرجها ويرج السرير ، وتجتاحها الرغبة الجلمحة في
ان تكف هذه الاصابع عن حنانها الخادع ، وان تضغط عليها
بقوة رهيبة ، تخلصها الى الابد من جسدها وتجعلها هي
وامها شيئا واحدا .

اغمضت عينيها لتنام لكنها لم تنم . تملكها الفزع لفكرة
غريبة خطرت لها . ذلك انها ستفني حياتها كلها بحثا عن هذه
اللحظة او هربا منها . وخبأت رأسها تحت اللحاف من
شدة الرعب ، وامتلات حجرة نومها باشباح الاساطير والالهة
الخرافية ، يضغطون على جسدها ليسحقوها وهي تقاوم بكل
قوتها ، ترفسهم بقدمها ، وتعضهم بأسنانها ، وتصرخ

مستنجدة بابيها وامها .

صراخها لم يكن خوفا حقيقيا . كلن خدعة ، تخدع بها امها . كانت تتعلم الخداع منها . كانت امها تكذب عليها . تنام معها في سريرها وتقول لها انها لن تتركها . وفي منتصف الليل تحس بها وهي تتسلل خارج سريرها وتذهب الى سرير ابيها . وكانت تفعل مثلها تماما . - تعرف كيف تصرخ بصوت مرتعش مثير للشفقة وتاتي امها اليها وتنام في سريرها .

لم تكن امها تفهم رغبتها . كانت تملأ فمها بالطعام ، وحين تستدير تبصق الطعام في الصحن . وتعجب كيف ان امها لا تعرف مع انها كانت مثلها . سألها مرة فقالت انها لا تذكر شيئا . وادركت ان الناس تنسى عن قصد الذكريات الحقيقية ثم تملأ ذاكرتها باشياء لم تحدث . قالت لها ببراءة الاطفال انها اكتشفت انها فتاة وليست ذكرا، وكشفت عن ملابسها لتثبت لها الحقيقة . لكنها ضربتها على يدها وصاحت : تحرمي ! ولم ترد فضربتها مرة اخرى وهي تقول : قولي حرمت ! ولم ترد . فرفعت يدها في الهواء وصفعتها على وجهها . ولم يفتح فمها لتقول حرمت ، لان ذهنها هو الذي انفتح على حقيقة غريبة ، وادركت وهي تزم شفيتها وتطرق برأسها الى الارض ان الناس لا تحرم الا الرغبات الحقيقية ، لانها قوية ، اما الرغبات غير الحقيقية فهي ضعيفة ولا تحتاج الي قوانين تحريم . وبدأت تبحث في كل المحرمات من حولها لتكشف رغبات الانسان الحقيقية .

انه البحث من اجل معرفة الحقيقة ، ولا شيء اكثر من هذا . لنم تكن تريد شيئاً اكثر من هذا .
و حينما يمر الدكتور علوي بعربته الطويلة
من خلال نافذة المشرحة تلمع عيون زميلات السبع وتتحرك
سبع ننيات (جمع ننى) في اتجاه واحد محدد . لكن الننى
الاسود الراسخ في عينيها يظل مشدودا الى ذلك الاحساس
الغريب الذي ينبهها بأن كل شيء مباح غير حقيقي . وتلكزها
احدى الزميلات باصبع مدبب في كتفها قائلة : انظري !
وترفع رأسها ناحية النافذة ، وترى العربية الطويلة ، يطل
منها رأس له عينان زرقاوان جاحظتان بعض الشيء
ويلكزها الاصبع المدبب في كتفها مرة اخرى :

— ما رأيك يا بهية ؟

— نظرتة غير حقيقية .

وتضربها بكفها البضة على ظهرها وتقول بصوت ساخر :

— يا خيبتك القوية !

وتنفث الافواه السبعة في ضحكة انثوية ، مكتومة
ومتقطعة ، كأنفاس تلهث بحرمان عاجز عن الارتواء الى الابد .
غضبت من حرمانهن اكثر مما غضبت من ضحكهن ،
وصعد الدم الى وجهها ، قلعت مشارطها وادوات تشريحها
ووضعتها في محفظتها الجلدية ، وغادرت المشرحة . حين
سارت في الهواء الطلق ، وتلاشت من انفها رائحة الفورمالين
والجثث الميتة ادركت أنها لم تكن غاضبة من حرمانهن ولا
من ضحكهن ، وانما هي تريد ان تهمس قبي اذن احد
بذلك الاحساس الغريب الذي يتكوم في جوفها كالجنين طوال

السنة ، يتراكم يوما بعد يوم ، ويعلو ويشتد ليبلغ الذروة في اليوم الرابع من كل سبتمبر ، يؤكد لها عن يقين انها ليست بهيئة شاهين .

خرجت من الكلية وسارت في شارع القصر العيني ، تحملي في الوجوه كأنما تبحث بينها عن وجهها الحقيقي . وعند محطة الترام وقفت ، وادركت انها لم تكن تبحث عن شيء ، وانها مرهقة وجائعة .

جلست في الترام ، ظهرها في ظهر رجل ، ووجهها في وجه رجل ، وعلى يمينها رجل وعن يسارها رجل ، وامامها صفوف من الرجال الجالسين متلاصقين في صمت ، انصافهم السفلى ثابتة متحجرة فوق المقاعد ، وانصافهم العليا تهتز بحركة بطيئة منتظمة كحركة الترام . وحين يقف الترام تتراجع رؤوسهم الى الخلف بقوة ، فاذا بهم يفتحون عيونهم في ذعر ، وحين يطمثون الى ان رؤوسهم لا تزال في موضعها يغمضون عيونهم وينامون .

موظفون كلهم ، لان شارع القصر العيني مكتظ بالوزارات ودواوين الحكومة . اجسامهم لها شكل واحد وملامحهم وبدلهم واصابعهم واحديتهم كلها اتخذت شكلا واحدا كأنما الحكومة تصكهم كما تصك النقود في قطع مخروطية متشابهة . اكتافهم متلاصقة ، متهدلة بعض الشيء (رغم حشو البدلة السميك) كأنما يحملون فوق اكتافهم عبئا ابديا لا يرى بالعين وانما هو قائم وموجود . والدليل على ذلك انهم من حين الى حين يحركون اكتافهم بطريقة توحى بانهم يزحزون العبء من كتف الى كتف .

ورغم انهم نائمون الا ان حركة عيونهم من تحت الجفن تكشف لها ان نومهم ليس حقيقا ، وحين يفتحون عيونهم وينظرون اليها تدرك ان يقظتهم ايضا غير حقيقية ، ويصبح كل شيء فيهم ومن حولهم غير حقيقي . اذا انفرجت شفاههم وظهرت اسنانهم لا تعرف اذا ما كانوا يتسمون ام يكثرون - واذا حركوا اصابعهم وهم يصعدون الترام او يهبطون منه لا تعرف اذا ما كانوا يتبادلون التحيات ام التهديدات . ويصبح كل شيء فيهم مختلطا ، والشئىء ونقيضه يتماثلان - فالابتسامة كالتكشيرة، والتحية كالتهديد، والصدق كالكذب ، والفضيلة كالرذيلة ، والحب كالكرهية . وتتشابه الحركات والملامح والمعاني الى حد الشعور بالاختناق، وتمد عنقها خارج الترام لتجذب نفسا عميقا من هواء الشارع . وحين يعود تنفسها الهادىء تدرك التشويشه الذي تصنعه الحكومات بالبشر ، فيصبح الرجل البالغ في حجم الطفل ، لكن عظام جمجمته تفصح عمره الحقيقي ، وتدل البذلة والكرافطة على انه من الطبقة الحاكمة، لكن مشيته تكشف عن حقيقة كونه من المحكومين .

في كل مكان كانت تراهم ، يملأون الشوارع ، وتكتظ بهم الترامات ، يدخلون ويخرجون من الابواب، والردهات والابنية ، باجسامهم الصغيرة ، واكتافهم المحشوة العريضة وجماجمهم الكبيرة ، وظهورهم المحنىة ، وشفاهم المنفرجة دائما عن ابتسامة كالتكشيرة او تكشيرة كالابتسامة . مخلوقات ادمية مسخت بقدرة قادر ، بقسوة هائلة غير بشرية ، تحول البشر الى مخلوقات اخرى غير بشرية .

هبطت من الترام وسارت نحو بيتها . رأت على بعد
رجلا يشبه الرجال الآخرين ذا كتفين عريضتين وجمجمة
كبيرة وظهر محني . تفادت النظر اليه واسرعت الخطى
لتدخل بيتها ، لكنه ناداهما باسمها فالتفتت اليه ، ورات
وجه ابيها . لا بد انه رأى ذعرا شديدا على وجهها لان عينيه
اتسعتا في دهشة وقال :
- مالك يا بهية ؟

واخفت عينيها بكفها وجرت من امامه الى البيت .
كان وجهها لا يزال شاحبا حين فتحت امامها الباب .
لكنها لم تلاحظ شحوبها . كانت شاحبة دائما ، ومن الصعب
على امرأة مثلها ان تقدر على تمييز درجات الشحوب ، فهي
قدرة نادرة تحتاج الى قدرة على التحديق الطويل . ولم تكن
امها تقدر على التحديق في وجهها . كانت عيناها لا تقويان
على الثبات في عينيها . واتخذت من ذلك دليلا على انها
كانت تخدعها منذ الطفولة . وابوها ايضا خدعها . كان يظهر
امامها في البيت بجسد طويل ضخم ، وظهر مشدود وكف
كبيرة قوية قادرة على صفعها ، مع انه ليس الا واحدا من
الاف الموظفين في الحكومة .

ثمانى عشرة شمعة مضاءة فوق المائدة البيضاء ، وامها
تملا فمها بالحلوى ، وحين تستدير تبصقها في الصحن
وابوها يبتسم في وجهها ، ولكنها تشك في ابتسامته .
ابوها كله اصبغ حقيقة مشكوكا فيها . الشك كالشمعة له
ضوء احمر وله لسعة حادة كالابرة . لا زالت تذكر اللسعة
فوق اضبعها ، والمائدة هي المائدة ، ولكن كان عليها شمعة
واحدة . كان عمرها عاما واحدا . الضوء الاحمر كانت
تراه في عينها كجزء منها . وجسمها الصغير الناعم زاحف
فوق الارض ملتصق كقطعة منها . لم تكن قد انفصلت بعد عن
الكون ، ولم تكن يدها تستطيع ان تدور حول جسمها دورة
كاملة . كانت يدها صغيرة وجسمها كبيرا ضخما يشغل
المساحة الضخمة بين السقف والارض . وحينما كانت
تعد يدها وتنفق ساقيها لم تكن تعرف انها ساقاها
ام ساقا الكرسي ؟ وحينما رأت الضوء الاحمر في عينيها لم
تعرف اهو ضوء الشمعة ام ضوء عينيها . وغازها الشك
قارادث ان تتأكد ، ومدت اصبعها فلسعتها النار ، وعرفت
الفرق بين اللهب وعينيها ، ومن خلال الشك والالم اصبحت
حدود جسمها تتشكل واعضؤها تأخذ شكلها الخاص .

سمعت صوت امها يأتيها من فوق المائدة البيضاء ،
مجتازا ثمانية عشر لسانا رفيعا من اللهب : كل سنة

وانتي طيبة يا بهية . دهشت ولم تصدق انها بلغت ثمانية عشر عاما . هل دار الكون حول نفسه ثماني عشرة سنة ؟ لم تعرف كيف سألت السؤال ، لكن خيطا حريريا غير مرئي يربط دورتها بدورة الكون . حين كانت تحمق في قرص القمر تمتد بينها وبينه الخيوط الحريرية كالاسلاك تشدها اليه وتشده اليها . لكن جاذبية الارض اشد ، وهي بينهما تبدو ساكنة من فوق السطح ، لكن اعماقها كدوامة البحر تغلي ، تقاوم الشد من كل جانب ، وينفجر في داخلها شيء صغير مستدير كالبالونة المنتفخة ، وتخرج البيضة الدقيقة بحجم راس الدبوس ، وفي راسها عين واحدة تحمق ، تسبح الى الامام وتحمق باحثة عن لحظة الاتصال الابدية ، لتسحق في الكون وتتبدد تماما .

اصبح وجهها احمر في ضوء الشموع وظن ابوها انها تخجل كفتيات الثامنة عشرة ، لكنها لم تكن في الثامنة عشرة ، ولم تكن فتاة ، فما معنى فتاة ؟ سألت السؤال لايها وامها وزميلاتها في المشرحة ، وحينما سمع الدكتور علوي السؤال دب ملقطه المعدني في بطن المرأة المفتوح وامسك الرحم . مثلث صغير من اللحم بحجم ثمرة الكمثرى الصغيرة ، امس من السطح ، ومجدد من الداخل وقاعدته الى اعلى ورأسه الى اسفل .

ثبت عينيه الزرقاوين في عينيها السوداوين وابتم . لكنها لم تبتسم . وشدها من يدها الى المنضدة المجاورة وقال بلهجة الاستاذ : اما الرجل فهذا . وامسك بطرفسي الملقط عضو الذكر . ورات قطعة جلد سوداء مجمدة كقطعة براز قديم .

حين عادت الى البيت جلست امام امها وطلبت منها ان تحقق في وجهها طويلا ثم سألتها : هل انا بهية ؟ وتشهق امها شهقتها الانثوية المكبوتة الى الابد وتقول : اعقلي يا بنتي ! لم تكن امها تفهمها ، لكن كانت تفهم امها ، وحين تحقق في عينيها طويلا كانت تستطيع ان ترى رحمها ، مكورا وقابعا في قاع بطنها ، وتلمح عضلاته وهي تنقبض وتنبسط ، وتنقبض وتنبسط ، في نبض سريع متصل ، كنقبض الكون في سكون الليل ، وبحركة لا مرئية ولا محسوسة كحركة الارض . تود ان تضغط بكل قوتها على هذا الرحم لتبطل حركته السرية المجنونة ، وليسكن الى الابد ، لكن امها تطرق بعينيها الى الارض ، لا تقوى على النظر طويلا في عينيها . في اعماقها شيء تخفيه عنها ، تدفنه في طيات نفسها ، وتلف عليه احشاءها طبقة فوق طبقة ، ليصبح غير مرئي ، وحركته مخفية لا نهائية ، سرية الى الابد .

الابد كلمة لا تعرف معناها ، فالיום يمر وراء اليوم ، ودورة القمر تتعاقب مع دورة الدم في عروقها ، والخلية المنتفخة في اعماقها تتفجر في اللحظة نفسها ، وتدور البيضة الدقيقة حول نفسها دورانا سريعا مجنونا كدورة الارض حول نفسها ، وبعينها الواحدة تحمق في الكون باحثا عن فناء ذاتها ، بلا جدوى ، بلا جدوى يتكرر الاحباط كل مرة ، مع دورة القمر اللامجدية ، ويتراكم الغضب في اعماقها

كسخونة الدم ، يتجمع ويتراكم ويدور مع دورة الزمن داخل مجال جسدها ، تحسه على يقين في خلاياها ، احساسا ملحا شديدا بالاحاح ، ينبئها بان شيئا خطيرا سيحدث لها في يوم من الايام ، يوم معين محدد .

لم يكن من عاداتها ان تحمل مفكرة بالايام ، ولم تكن تنظر الى النتيجة المعلقة في حجرة ابيها والتي تراه يشد منها كل يوم ورقة . يشدها بالطريقة نفسها وفي اللحظة نفسها كل صباح . يشدها ويكورها بين اصابعه وتشدها بعيدا وتصرخ في وجهه : اتركها ! قبل ان يرفع ابوها يده الكبيرة عن الورقة تتوقع انها اخطأت ، وان الشمس لم تتوهج بدرجة غير عادية وان عيني امها هما عيناها ككل يوم ، وان ذلك الاحساس الغريب الذي انتابها ليس الا وهما من اوهامها الكثيرة المتنوعة . وتستدير وتترك اباهما ليشد الورقة كما يشدها كل يوم ، لكنه لا يشدها ، وتسمع صوته من خلف ظهرها يقول : كل سنة وانت طيبة يا بهية ، ويلتوي عنقها في حركة سريعة عنيفة ، وتصطدم عيناها بالرقم ٤ (اربعة) فوق الورقة البيضاء كخط زجاجي اسود . ويهرب الدم من وجهها ويصبح شاحبا .

تتلقت حوالها وهي تسير في الشارع وحين تسمع صوتا من خلفها تتوقف وتستدير كان احدا يناديها . وتذكر بعد لحظة انه ينادي اسما اخر على وزن بهية ، كوفية او نجية او عليّة ، او زكية .

وحين تركب الترام يخيل اليها ان احدا ركب وراءها ، انه يتبعها ، وحين تهبط في شارع القصر العيني تكاد تسمع

خطواته من خلفها ، وحين تدخل من باب الكلية يدخل .
في فناء الكلية الواسع المزدهم تفقده ، تختلط
الاصوات والملامح، وتحس انها تفرق في بحر وحدها ، دون
ان يراها احد ، ودون ان يميزها احد ، وان وجهها اصبح
كوجه زميلاتها لا فرق بين بهية او علية او سعاد او ايفون،
وفي هذه اللحظة تدرك المعنى الحقيقي للموت . كانت
تبحث عن الموت في جثث المشرحة . لكن الموت كالحياة
لا يعيش في الجثث .

الموت لا يعيش الا في ذهن حي، شديد الحياة ، قادر
على التقاط ادنى الاحاسيس واكثرها اختفاء وسرية ، كذلك
الاحساس بالضيق الذي تحسه ذرة هواء سابحة في الكون
تقاوم الضيق بين ملايين الذرات ، او كتلك الرغبة
المحيطة التي تحسها قطرة ماء تقاوم الدوبان في ماء البحر .
المقاومة المجنونة اليائسة في قمة الاحباط ، تصنع الاستسلام
الكامل كالسكون الابدي . من ينظر الى وجهها في تلك
اللحظة يظن انها عمياء وخرساء ، وان جسدها ساكن لا
يتحرك ، مع ان قدميها تنتقلان على الارض ، القدم وراء
القدم ، والاشياء امام عينيها بلون واحد وشكل واحد ،
والاجسام كلها متشابهة ، والحركات والاصوات متشابهة .
تجد نفسها تجري بغير وعي ، هاربة من فناء الكلية ،
هابية من التشابه الميت ، داخلها وخارجها ، في جسدها
وفي العالم الخارجي .

كان لها ركن صغير منفصل ، منعزل ، بحذاء سور
الكلية ، وراء المبنى الضخم ، تجلس فيه على مقعد خشبي بغير

ظهر ، تجلس محنية الى الامام ، تحملق في قطعة صغيرة من الارض بحجم كف اليد لم ينبت عليها العشب الاخضر ، ودون بقية الارض من حولها ظلت طينية اللون ، مشققة ، ومن بين الشقوق الرفيعة تدخل وتخرج ملايين الكائنات الدقيقة بحجم النمل .
- بهية !

يرن الاسم في اذنها غريبا كاسم واحدة غيرها ، وتنتفض من فوق المقعد ، وفي انتفاضة جسدها تدرك ان لها جسدا خاصا ، يمكن ان تحركه وتهزه فلا تهتز معه الاجسام الاخرى وان له اسما خاصا ، حينما يرن في الجو ترفع رأسها وتندهش ، وقد تسأل : من يناديني ؟ فسي كل مرة تسمع النداء تندهش ، وتدرك باحساس خفي ان احدا يناديها باسمها من دون الاسماء الاخرى ، ويتعرف على جسدها من ملايين الاجساد ، ويستطيع ان يميزها من بين المخلوقات السابحة في الكون بالبلابين .

يهرب الدم من وجهها في شحوب غير بشري ، كشحوب التماثيل المنحوتة من الصخر ، او كوجوه الجثث المرصوفة على المناضد الرخامية في المشرحة . ورات لون وجهها حين نظرت في مرآة حجرة الطالبات ، واصابعها حين لمست بشرتها كانت باردة مثلجة . وتعرف عن يقين انها ترتعد وانها تريد ان تهرب من ذلك الصوت الذي تادها ، من ذلك النداء الذي يقصدها هي بالذات ، من تلك القدرة الخارقة التي استطاعت ان تميزها هي دون الاخرين ، ارادت ان تهرب . بسرعة لم تألفها قدماها دست نفسها بين الطالبات وجعلت جسدها

يتوه بين اجسادهن ورأسها يختفي بين رؤوسهن . وحينما تتحرك الرؤوس تحرك رأسها معها ، الى اليمين او الى اليسار او الى الامام او الى الخلف ، تحتفي فيها كدرع ، وتظل كذلك بينهن مخفية ، لا تقوى على ان تطل برأسها الى الخارج ، فهناك في الخارج قوة خارقة للطبيعة تستطيع ان تلتقطها من وسط الزحام ، وتميز جسدها من بين الاجساد . قوة قادرة رهبة ، ما ان تطل برأسها حتى تشدها اليها بمغناطية اشد من جاذبية الارض ، وما ان تشدها حتى تدخل مجالها الكهربائي ، وتدور في فلكها كمنحلة مجنونة نزعوا عنها قرناتها فراحت تدور حول نفسها حتى يسحقها الدوران .

كانت تشعر بذلك الخطر ينمو داخلها ويكبر ، ذلك الخطر الذي يهددها بانها منسحقة لا محالة ، وان جرثومة ما تعيش في جسدها ، تنهشه في حذر وهدوء لتسحقه بالتدريج دون ان تدري ، او انه سينسحق فجأة وفي لحظة خاطفة تحت قضبان الترام ، او بين عجلات الاتوبيس . وان احدا لن ينقلدها . وحينما تسمع صراخا وتطل برأسها من الترام وترى الجسد الممزق فوق القضبان تحس انه جسدها ، وهذا الوجه الشاحب هو وجهها ، وهذا الدم الاحمر فوق الاسفلت هو دمها . ثم يتحرك الترام مرة اخرى وتجدها قابعة في مكانه فوق المقعد سليما صحيحا ، ودمها لا زال داخل عروقها لم يخرج ، وتذكر باحساس خفي ، ولكنه يقيني ، ان اليوم لم يأت بعد ، وانها لا زالت بهية شاهين ، طالبة الطب المجدة حسنة السير والسلك ، ابنة محمد

شاهين المدير بوزارة الصحة .

تدخل الكلية بحركة تشبه حركتها كل يوم، وتتجه الى مدرج علي باشا ابراهيم وتجلس في المقعد الذي تجلس فيه كل يوم . اخر مقعد في اخر صف من ناحية اليسار . من يراها يظن انها نائمة في مقعدها ، مع انها يقظة شديدة اليقظة ، ترى الطلبة بوضوح اشد من اي وضوح سبق ، تراهم وهم يندفعون من الباب ، يدوسون على اقدام بعضهم البعض ، الحقائق المنتفخة بكتب التشريح مضغوطة تحت الابط ، والنظارة البيضاء السميكة تهتز فوق الانف تسندها اليد اليسرى من السقوط، والذراع اليمنى ممدودة الى الامام تزيج الاجسام الاخرى من الطريق يتسارعون الى احتلال الصفوف الامامية من المدرج ، ويجلس الواحد منهم في مقعده وهو يلهث ، ويفتح كشكول المحاضرات باصابع حمراء متورمة (بسبب التسلق على الترام) يدلكها بحركة سريعة ثم يضعها في جيبه ، وقد يضع راسه داخل الكشكول ليراجع المحاضرات السابقة ، او يمد عنقه الى اليمين او الى اليسار ويهمس في اذن زميله بنكتة (في معظم الاحسان نابية) وحين يدخل الاستاذ يدب الصمت في المدرج ، ويصبح الواحد منهم قادرا على سماع الاصوات المنبعثة من معدة الآخر (بسبب عدم تناول الافطار قبل الحضور) يتحرك الاستاذ امامهم من فوق المنصة ، بخطوات بطيئة هادئة ، وصوته هاديء وجسده هاديء واعضاؤه مستريحة وخلاياه مطمئنة ، كذلك الاطمئنان الذي تشعر به خلايا المعدة بعد غذاء دسم ، او خلايا الالية بعد الاسترخاء في مقعد وثير .

وينمض الطلبة عيونهم ويحلمون بهذا الاسترخاء ، ويدركون انه حلم قديم منذ الطفولة ، منذ لمحوا البريق في عيون آبائهم وأمهاتهم حين يرن في الجو اسم دكتور .

كانت تجلس في مقعدها الخلفي ، لا ترى عيونهم ، وانما ظهورهم ، وكلها مكنية الى الامام فوق كشاكيشل المحاضرات ، ويخيل اليها انهم سيظلون الى الابد محنيين ومنكفيين فوق وجوههم ، وتندهش حين تراهم (بعد انتهاء المحاضرة) يتحركون ، وانهم ينهضون بسرعة ويندفعون نحو الباب ، يدوسون على اقدام بعضهم البعض ، ويتدافعون بالانزع وعظام الكوع المديبة ، وحينما يندس كوع الواحد منهم في يدي طالبة تنفجر شفتاها في حركة غير مرئية ، لا تكاد الشفة ترتفع عن الشفة ، وبصوت مكتوم غير مسموع تقول : آه ! وتضع حقيبة الكتب المنتفخة فوق صدرها . في ذلك الوقت يكون ملمس الشدي الطري قد سري كالترياق من كوع الواحد منهم الى كتفه الى عنقه . وتتقلص العضلات وتصبح الاعناق مشدودة ، والملامح مشدودة ، وتبدو العيون من شدة التوتر كنقطة الوسط في جبل مشدود من طرفيه ، ساكنة من السطح ، لكن خلاياها العميقة تموج بحركة لا مرئية ، حركة عنيفة مجنونة تقاوم الشد ، وتلتوي عضلات العين ناحية كل شيء فيه طراوة اللحم ، لا تفرق بين الالذاء او الازداف او الحقايب الجلدية ، ويضغط الواحد منهم باسنانه ، عن غير وعي ، على حقيبة كتبه الجلدية يقطع منها قطعة يعضها ، وحين يكتشف انها قطعة جلد يخجل من نفسه ، ويخفي بكفيه الثقوب المنتشرة في حقيبته . وفي الترام يصبح

كل شيء فوق طاقته، ويجد نفسه مدهوسا ، عن غير قصد،
بين تديي امرأة . وفي منتصف الليل يفلق كتب التشريع
وينام في السرير ، لكن جسده يأبى النوم فقد تجمع الترياق
في بؤرة محددة ، وتكون برأس مدب كراس الدمى ، وما هي
الا ضغطة واحدة باليد حتى ينفض .

كانت تدرك بوضوح انها لا تحب هؤلاء الطلبة ، لاتحب
اندفاعهم من الباب ، بنظاراتهم السمكة وعيونهم المشدودة ،
وكيعانهم المديبة ، واحتلالهم المقاعد الامامية ، وظهورهم
المحنية تصبح في وجهها ، وتحمل في اعناقهم من الخلف
وترى من فوق حافة الياقة البيضاء البشرة السمراء واضحة
المسام ، ومنابت الشعر المقصوص وفتافيت كالدماغ
الصفيرة .

وتهمس في اذن زميلتها بشيء ، فتشهق الزميلة
بالضحكة الانثوية المكبوتة وتقول : اعقلي يا بهية ، وفكري
في مستقبلك .

احساس خفي ، لكنه قوي ، ينبثها بان مستقبلها ليس
في هذه المحاضرات الطويلة المملة ، وليس في الحصول على
شهادة الطب ، وتركيب الياقطة الطويلة في الميدان (دكتورة
بهية شاهين) - واسترخاء الاليتين في مقعد السيارة
الوثير . كل هذا يبدو لها ، باحساس خفي ، بلا معنى ،
كالصفحة البيضاء الخالية تماما من الكتابة ، كالليل الاسود
الخالي من نجم واحد ، كالكون الضخم وقد اصبح كله اسود
او ابيض لا فرق ، فهو كله بلون واحد .

حينئذ تدرك العبث ، عبث الكون من حولها ، وعبث

الحياة ، وعبث هذا الاستاذ الذي رشق السيجارة في زاوية فمه ، وعبث هذه المحاضرة ، وعبث هذه الظهور المحنية الى امام والاعناق المرشوقة من الخلف بالفتافيت .

تضع كتبها وكشاكيلها داخل حقيبتها ، وبحركة جانبية يصبح جسدها منفصلا عن المقعد ، وبحركة الى الخلف تخرج من الباب الخلفي للمدرج ، وفي اقل من لحظة تصبح وحدها في فناء الكلية الواسع .

تسال نفسها وهي تحرك ساقيها في مشيتها العادية ماذا تريد بحياتها ، وتترك السؤال بغير جواب معلقا امامها في الفضاء ، يحركه الهواء امام عينيها كبندول الساعة . وتخطط الارض بقدم واحدة بخبطة قوية واحدة ، وتذكر عن يقين انها تريد بحياتها شيئا معينا ، شيئا يمكن تحديده بنقطة محددة ، تستطيع ان تصنعها بسن الريشة فوق صفحة بيضاء ، وتستطيع ان تلمسها بطرف اصبعها ، تماما وباليقين نفسه الذي تلمس به جسدها وتحس حدوده الخارجية من تحت ملابسها ، وتستطيع ان تميزه من كل الاجساد ، وتفصله عن الارض - بحركة من قدمها .

فوق سريرها في حجرتها الصغيرة ، تحملق في السقف ، ترى نفسها وهي جالسة على كرسى كرسىها الاحمر الصغير ، وامامها منضدتها الحمراء ، فوقها الكراريس وكتاب المطالعة الرشيدة ، غلاقه ازرق ، تتوسطه التكت البيضاء ، الاسم : بهية شاهين ، الفصل : اول ابتدائي ، وتشد الورقة البيضاء من الكراسي ، وبحركة من يدها الصغيرة تصنع بسن الريشة خطأ واضحا ، تدرك من شكله انه خطأ ، وان اليد

يدها ، والاصابع من حول الريشة اصابعها ، تحركها بإرادتها ، وتصنع فوق الصفحة البيضاء خطوطها المميزة ، تصنع الدائرة الكبيرة ومن داخلها دائرتين صغيرتين فيصبح أمامها وجهها وعينين تنظران إليها من فوق الورقة البيضاء ، سوداوين واسعتين كعينيهما تطلان من خلال المرأة ، تتأمل خطوطها فوق الورقة كما تتأمل ملامحها ، تعرفها كما تعرف وجهها لا نخلط بينه وبين الوجوه الأخرى ، وتستطيع أن تميزه ، وتلمس خطوطها فوق الورقة باصبعها تماما ، وباليقين نفسه الذي تلمس به جسدها ، وتحس حدوده الخارجية من تحت ملابسها .

فتح أبوها الباب ، فأخفت الورقة تحت كتاب المطالعة، لكن اصابعه الكبيرة رفعت الكتاب وشدت الورقة ومن فوقها الخطوط . ضربها على يدها الصغيرة بكفه الكبيرة وهو يقول: تضعين وقت المذاكرة في الشغبطة ! وكور الورقة في كفه الكبيرة وألقى بها في سلة المهملات .

حين تخرج ، ترمق خطوطها المميزة مكورة الى جوار قمامة البيت ، وتظل تحمق بها كما تحمق في وجهها في المرأة . وتشد ورقة جديدة ، وبحركة يدها الإرادية تصنع خطوطها ، وتذكر رغم طفولتها أن شيئا ما يربط بينها وبين هذه الخطوط ، كالأسلاك الكهربائية غير المرئية أو الخيوط الحريرية الرفيعة بلون الهواء ، تمتد مشدودة بينها وبين خطوطها فوق الصفحة البيضاء ، تؤكد قدرتها على تمييز حركة يدها ، وشكل اصابعها ، وارتفاعة انفها ، وسواد عينيها .

وتسمع صوت أبيها وهو جالس في الصلاة، قابع في مقعده الاسيوطي ، فتخفي الورقة تحت كتاب المطالعة ، وتقرأ من الكتاب بصوت عال ، يرن في اذنها كصوت واحدة غيرها ، واسمها فوق الغلاف يبدو تحت عينيها غريبا ، كاسم تلميذة اخرى ، مطبوعة ومؤدبة ، تسمع الكلام وتعمل الواجب، وتدفن حقيقة نفسها في طيات الورقة المخفية .

منذ وعت الحياة وهي تسال نفسها السؤال : لماذا كل الاشياء التي تحبها محرمة ؟ حتى الطعام يفرضون عليها انواعا منه لا تحبها ، تدسها امها في قمها ، وحين تستدير تبصقها في الصحن . وابوها بينه وبين خطوطها عدا ، ما ان يراها فوق ورقة حتى يمزقها او يكورها ويلقي بها بعيدا مع القمامة ونفايات البيت .

كالحاجز الطويل الضخم ، كان ابوها يقف بينها وبين نفسها الحقيقية ، يحول بينها بضخامة جسمه ، وصوته القوي الخشن ، وكفه الكبيرة وعينيها الكبيرتين القابعتين في مدخل البيت . حين يرن صوته : بهية ! تدرك انه ينادي واحدة غيرها ، لكنها ترد وتقول : نعم ، ويسألها عملت الواجب ؟ وترد بصوت مطيع مؤدب : نعم . ويتصل صوتها الى اذنها بكلمة نعم فتعلم عن يقين انه ليس صوتها .

حين يختفي ابوها من الصلاة ، وتصبح في حجرتها وحدها تستطيع ان تسمع صوتها الحقيقي ، وتستطيع ان تحدد ملامحه ونبرته الخاصة ، كما تحدد ملامح وجهها ، وباصابعها الرفيعة تخلع التكت البيضاء بالاسم المستعار من فوق الغلاف الازرق ، وبسن الريشة فوق الصفحة البيضاء

تحدد كل الاشياء كما تراها على حقيقتها ، وحين ترسم اياها تصنع له عينين حمراوين وشاربا طويلا اسود وكفا كبيرة واصابع تلتف حول عصا طويلة .

لم يكن لابيها شارب طويل اسود ، لكنها في ذهابها وعودتها من المدرسة كل يوم كانت ترى الشرطي قابعا في كشكه الخشبي على ناصية الشارع . لم تكن ترى من وجهه الا شاربا طويلا اسود ، وحين تقترب من مكانه تسرع الخطى واحيانا تجري ، وتظل تجري حتى تصل البيت .

اما العصا الطويلة فكانت تهتز امام عينيها كل صباح وهي جالسة وراء درجها الخشبي في الفصل ، وصوت المدرسة رن في اذنيها بنبرة حادة كنبرة ابيها : بهية شاهين ! عملت الواجب ؟ في اللحظة الاولى تظن ان المدرسة تنادي واحدة غيرها ، وتطبق شفيتها في صمت ، لكن الصوت الحاد يرن مرة اخرى : بهية شاهين . فتنتفض واقفة وترد بالصوت المؤدب المطيع : نعم .

اليوم الوحيد الذي كانت تحبه هو يوم الجمعة . فهي لا تذهب الى المدرسة ، ومن السرير الصغير تنزلق بخفة الى كرسيها الاحمر ، ومن وسط الكراسي تشد ورقة بيضاء ، وتلتف اصابعها الصغيرة حول الريشة ، وتحرك يدها فوق الورقة وتصنع خطوطها ، واحيانا تخرج من طيات حقيبتها قلما احمر ، او ازرق ، او اخضر ، اشترته بمصروفها من الدكان المجاور للمدرسة ، او استعارته من زميلة ، وتلون الخطوط ، وتصنع للشجرة اوراقا خضراء ، وللبحر ماء ازرق ، وللدم لونا احمر . كيف عرفت ان الدم لونه احمر ؟ .

اول بقعة دم حمراء رأتها في حياتها كانت فوق
سروالها الصغير. الابيض . ترسمها كالدائرة الحمراء القانية
وسط الصفحة البيضاء ، وعينا الطفلة الصغيرة دائرتان
واسعتان مدعورتان ، وجسمها صغير ورفيع كجسم العصفور
يرتجف وراء الجدار ، وعيون كثيرة كالدوائر الواسعة تحلق ،
وتدفن سروالها باصابعها المتورمة الصغيرة في حفرة وراء
الجدار ، وتسير في الشارع بغير سروال ، تنفذ الريح الباردة
بين ساقها تحاول ان ترفع فستانها عن فخذيها ، لكنها
تشد الفستان بيديها الاثنتين وتقاوم الريح ، وتسير فوق
الشارع الاسفلت تتدلى من بين اصابعها الصغيرة الحمراء
حقيبة جلدية منتفخة بالكراريس وكتب الحساب والمطالعة .
وحين تقترب من الكشك الخشبي تسقط من بين
ساقها فوق الاسفلت نقطة حمراء قانية ، تفترش الارض
على شكل دائرة حمراء ، تتسع وتكبر وتصبح في حجم
قرص الشمس ، يحلق فيها الشرطي بشاربه الطويل الاسود ،
ويعد انفه من وراء الكشك متشمما رائحة الدم ، وتلقي حقيبتها
على الارض وتجري لاهثة الى البيت .

حركت راسها الثقيل فوق الوسادة ورات الحقيبة
الجلدية المتفخة بكتب التشریح فوق مكتبها الصغير ، وفوق
المكتب جمجمة ، وكشاكيل ، وكوب ماء فيه وردة حمراء .
نهضت وقربت انفها من الوردة ، لمحت بطرف عينها النتيجة
معلقة على الجدار فتذكرت موعد الامتحان . رصت الكشاكيل
والكتب امامها وجلست تحمق في الجمجمة ، جمجمة انسان
مات منذ سنين ، اشترتها من فراش المشرحة بثلاثة جنيهات .
كانت في العام الماضي بجنيه واحد ، لكن الاسعار ارتفعت
والجثث شحت واصبح لها سوق سوداء ، يشترك الحانوتي
مع فراش المشرحة ، مع خفير المقابر ، وحين يدهس الترام
الجسد المجهول الذي عاش ومات دون ان يعرف لنفسه ابا
او اما (يسمونه العديم الاهلية) يبرز على الفور الحانوتي وفي
يده الاب ، اي اب ، يؤجره بالساعة ، ويلقى الاب براسه فوق
الجسد الميت ويبكي بدموع مزيفة ، كدموع الالباء الحقيقيين ،
ويتسلم الجثة ويوقع عليها باسمه وتصبح ملكه الخاص -
يصنع بها ما يشاء ، تماما كما يمتلك الاب ابنه ويصنع به
ما يشاء .

ويبيع الاب جثة ابنه لخفير المقابر ، الذي يبيعها
للحانوتي ، الذي يبيعها لفراش المشرحة ، وهذا بدوره يبيعها
لعميد كلية الطب ، او للطلبة الاثرياء الذين يذكرون في

البيت ويحتقرون الذهاب اليومي الى المشرحة .
تأملت بهية الجمجمة ، ورات الشقوق الطولية بين العظام
كالجروح الغائرة العميقة وعظام الخدين بارزة ، والعينان
حفرتان غائرتان في الجبهة ، والفكان مديبان من فوقهما
فجوات الاسنان العميقة .

كوجه الطفل الذي يتسلق على الترام بجلبابه الممزق ،
وفوق يده عالية الدبابيس وعلب الكبريت وامشاط الشعر ،
ينادي بصوته الممزق المبحوح ، ويقفز من ترام الى ترام ،
بساقه الوحيدة ، وينظر الى الناس بعينيه الغائرتين ، يبحث
في الوجوه عن وجه له ملامح الاب والام ، يدس يده في
جيبه ويخرج قرشا او قرشين ويشترى منه مشطا او علبة
دبابيس .

لكن الوجوه الجالسة في الترام ليس فيها آباء ولا
امهات ، وانما تلك الوجوه المتشابهة بقدرة قادر ، المصكوكة
بمطرقة الحكومة كالنقود ، جالسين متلاصقين في صمت ،
انصافهم السفلى ثابتة متحجرة فوق المقاعد ، وانصافهم العليا
تهتز بحركة بطيئة منتظمة كحركة الترام ، جماجمهم الكبيرة
تتذبذب كبندول الساعة ، واكتافهم العريضة (بسبب حشو
البدلة السميك) متلاصقة ، والكرافطة ملتفة حول - اعناقهم
كالمشنقة ، وحين يقف الترام فجأة تتراجع رؤوسهم الى
الخلف بقوة وترتطم بالترام فينتفضون في مقاعدهم ، قابضين
بايديهم على رؤوسهم ومحملقين حولهم بعيون واسعة صفراء
مليئة بالذعر . وترن في الجو صرخة طفل .
تسقط العيون كالدوائر الصفراء فوق الجسد الممزق

تحت عجلات الترام ، ومن حوله تناثرت الدبابيس وعسلب
الكبريت والامشاط ، وفوق الاسفلت تلمع البقعة الحمراء ،
تفترش الارض وتتسع الدائرة - الحمراء كقرص الشمس ،
والعينان الفائرتان تطلان من تحت العجلات الحديدية
كحفرين عميقتين في بطن الارض .

يتحسس كل واحد رأسه وعنقه وذراعيه ، وفخذه ،
وحين يطمئن الى ان رأسه لا يزال فوق عنقه ، وجسده لا زال
في مقعده ، ودمه لا زال في عروقه ، تنفرج الشفاه عن تنهيدة
طويلة عميقة ، وتلمع العيون بفرحة خفية ، وقد يضافح
بعضهم البعض مهئين حامدين الله شاكرين فضله لانه مزق
تحت العجلات جسدا اخر غير جسدهم ، ويرفعون كفوفهم
الى السماء متممين بآيات الحمد ، متوهمين انهم يرشون
الله بهذه التمتمة فلا يبطش بهم في اي وقت وتظل رؤوسهم
فوق اعناقهم الى الابد .

مدت بهية يدها وحركت الجمجمة فاصبحت العينان
الفائرتان ناحية الحائط ، واغلقت كتاب التشريح ، ومدت
يدها وراء السرير وشدت اللوحة البيضاء ، أسندتها على
الجدار وجلست على الشلثة الصغيرة فوق الارض والى
جوارها الفرش والالوان .

حجرتها مظلمة تماما الا من دائرة ضوء بيضاء مسلطة
فوق اللوحة من لمبة صغيرة ، والسماء من خلال نافذة سوداء ،
والليل صامت وابوها نائم ، ولا صوت يسمع ولا حركة ، الا
حفيف الفرشاة تروح وتجيء فوق السطح الاملس ، بتلك
الحركة الخفيفة باصابعها ، تحرك يدها بارادتها في اي اتجاه ،

وترفع جفنيها بكل قوتها من فوق عينيها لتقاوم النوم، وتظل
تساخنة الى خطوطها ، وبقع الالوان ، لا تكف عن الحملقة ،
ومن حين الى حين تمتد يدها بتلك الحركة الارادية تصفع
الوجوه المتشابهة بضربات الفرشاة ، وتنزع باصابعها قناع
اللحم المشدود ، وتسحب الجسد الممزق من تحت العجلات ،
وتكسو الجمجمة النحيلة باللحم وتصبح الحفرتان الفائرتان
عينين سوداوين تشبهان عينيها .

في الصبح تفتح عينيها على صوت ابها الحاد كصوت
المنبه ، وترتدي البنطلون الاسود والبلوزة البيضاء ، وتحمل
الحقيبة الجلدية المنتفخة وتسير نحو الترام . تدب على
الارض بقدميها وتفصل بين ساقيها في خطواتها ، وحين ترى
الوجوه المتشابهة في الترام تزم شفتيها في غضب ، وحين
ترى زميلاتا يسرن بسيقتانهم المتصقة بتلك الحركة الدورية
الفريبة تدرك انهن من فصيلة وهي من فصيلة . وتقف في
المشرفة ترفع قدما فوق حافة المنضدة الرخامية ، وتنتصب
ساقها الثانية فوق الارض طويلة ، عظامها مستقيمة وعضلاتها
مشدودة ، ترمق بطرف عينا سيقان الطلبة المعوجة ،
ونظاراتهم السمكة داخل كتب التشريح ، وانوفهم الحمراء
المتورمة ، وظهورهم المحنية المنكفئة فوق الجثث، تتلفت حولها
في دهشة كالذي ضل الطريق . لكن المشرط بين اصابعها
وكتاب التشريح غلافه ازرق - ومن فوق التكت البيضاء
الاسم : بهية شاهين ، الفصل : اولى مشرحة ، تندهش ،
وتحرك المشرط من اعلى الى اسفل في كتلة اللحم الفارقة
في الفورمالين ، ويصطك المشرط بشيء صلب ، اخرجته من

التجويف بطرف المشرط ، فسقط فوق المنضدة الرخامية
محدثا صوتا كقطعة زلط ، شقها المشرط نصفين فاذا بها
جلطة دم تجمدت ، واسودت .. ضحكت زميلة من زميلاتها
ضحكتها الانثوية المكبوتة وهي تقول : يا خبر ! ظننت انها
رصاصه ! مدت زميلة اخرى عنقها ونظرت الى القلب
المشطور وتساءلت بدهشة : في القلب رصاصه ؟ واخفت
واحدة فمها بكفها وشهقت : يا عيني ! وتنهدت اخرى بصوت
مسموع : يا ريتني انا .

ان شيئا من هذه المعاني المألوفة عن الموت لا يمكن ان
يوجد في المشرحة . فالموت هنا ليس موتا ، والجثة ليست
شخصا ميتا ، وجلطة دم متجمدة كقطعة رصاص في جوف
القلب قد تكون شيئا مشيرا لرغبة مكبوتة مدفونة في اغوار
النفس ، كان ينشطر القلب ، او يكف الدم عن دورانه العبيثي
ويتجمد في العروق . انه الموت الذي يرغبه الانسان ويهربه ،
ويبحث عنه ويهرب منه ، ويتصوره في كل مكان ولا يجده
في اي مكان ولا في المشرحة .

التفتت بهية الى زميلتها التي قالت (يا ريتني انا)
وسألتها : ترغبين في الموت ؟ فشهقت الزميلة بدهشة
واستنكار : الموت ؟ بعيد الشر عني يا اختي . وادركت بهية
الأساية ، وعرفت لماذا يخفي الانسان رغباته الحقيقية ، لانها
الرغبات العنيفة الساحقة في عنفها ، ولان الانسان لا يريد
ان ينسحق فهو يفضل الحياة الفاترة بغير رغبات حقيقية .
وامسكت بهية بهذا الطرف من الخيط ، وبدأت تسير
نحو الطرف الاخر ، وهي تدرك انه ليس هناك طرف اخر ،

وانما هي الهاوية السحيقة بعينها . لمت مشارطتها وادوات
تشريحها في الحقيبة الجلدية وخرجت من المشرحة . سارت
في الفناء بخطواتها الواسعة السريعة وفي كل خطوة يتزايد
احساسها بالقرب من الخطر ، ودت لو تستدير وتعود الى
المشرحة لكنها مشدودة ، باحساس خفي ، الى هذا الخطر
بعينه ، الى هذه الحافة على شفا الهاوية .

بهية ! رن الاسم في اذنها فانتفضت ، وفي انتفاضة
جسدها ادركت ان لها جسدا خاصا يمكن ان تحركه وتهزه فلا
يهتز معه الكون ، وان لها اسما خاصا ، حين يرن في الجو
تنتفض . في كل مرة تسمع النداء تندهش . اية قوة خارقة
استطاعت ان تميز اسمها من بين الاسماء الاخرى ، واية
معجزة تلك التي التقطت جسمها من بين ملايين الاجساد
السابحة في الكون .

حين توقفت وجدت انها لا تزال في فناء الكلية، وانها
امام لوحة كبيرة معلقة فوق باب صغير اخضر داكن . هذه
النقطة لم تزد عن نصف دقيقة ، وكانت على وشك ان تستدير
وتتجه الى باب المشرحة وتعود الى ما كانت فيه وتظل فيه
الى الابد . لكن نصف دقيقة قد تغير مجرى حياة الانسان .
قد تنفجر قنبلة في نصف دقيقة ، ويتغير شكل المدينة
والارض . الاحداث الخطيرة في الحياة تحدث دائما بسرعة
شديدة في ثوان، واحيانا في غمضة عين ، اما الاحداث التافهة
فتحدث ببطء ، وفي وقت طويل قد يمتد طول العمر .

حين رفعت عينيها من فوق اللوحة ادركت ان احدا
امامها ، ليس اي احد ، وانما هو هذا النوع من البشر، الذي

لا يمكن ان تمر عليه عيوننا دون ان تتوقف وربما لا تتوقف
الا بضع ثوان او ثانية واحدة، بسبب ضيق الوقت او التحرج
من الحملقة الطويلة ، لكنها تكفي لان تجعل هذه الملامح امام
عيوننا الى الابد . استطاعت بعد ان مرت الدقيقة الاولى ان
تتغلب على المفاجأة وان تقوى على الحملقة . وباستطلاع
غريزي بحثت في الملامح غير العادية عن السبب الذي جعلها
غير عادية . ورات الجبهة عادية والعينين عاديتين ، والانف
عاديا والفم عاديا . ودهشت كيف يتكون من مجموع هذه
اللامح العادية ذلك الوجه الغريب غير العادي .

في تلك اللحظة كان قد اصبح امامها تماما ، يضع قدمه
اليمنى على عتبة باب المعرض - وكاد يصطدم بها لولا انه رفع
رأسه وراها ، وحينما التقت عينها بعينه ادركت ان سر
غرابة الوجه هو في حركة العينين حين تنظران ، فهي حركة
قريبة ، تختلف عن حركة ميون الطلبة حين ينظرون . عيونهم
تبدو وكأنها لا تنظر ، وكأنها لا تفعل شيئا ، وانما هي مفتوحة
فحسب ، كمرآة تنعكس على صفحاتها الاشياء . وبمعنى اخر
ميون الطلبة ، لا تمارس النظر الحقيقي ، وبالتالي فهي لا ترى
الاشياء او لا تراها على حقيقتها .

حينما تحركت عيناه امام عينيها احست انه يراها .
وانها لأول مرة تصبح مرئية بعينين اخريين غير عينيها . امام
المرأة فقط كانت تدرك انها مرئية بعينين سوداوين هما
عينها . وفي الشارع او في الترام او في الكلية ترى العيون
عاجزة عن رؤيتها ، عاجزة عن تمييزها من بين الالاف ، وانها
تضيع وسط الاجساد المتشابهة ، ولا شيء ينتشلها من الضياع

الا يدها حين تلامس جسدها ، وتعرف عن يقين ان لها جسدها الخاص ، وعينيها حين تلوذان بخطوطها فوق اللوحة البيضاء ، وتصبح حركة يدها مرئية ، وخطوطها واضحة ، منفصلة عن الكون بحدودها الخارجية ، واستدارتها الخاصة بحركتها الارادية القوية ، تحطم بها الارادات الاخرى ، وتنزع الغطاء عن الجسد وتشد القناع عن الملامح، وتخلع «التكت» البيضاء بالاسم المستعار من فوق الفلاف الازرق .

رأت عينيها الغريبتين تفحصان وجهها كما تفحصه هي في المرآة ، وتنفذان من خلال عينيها الى السرداب الطويل الضيق في اعماقها . ان لحظة اخرى واحدة كافية لان يصل الى النهاية . لكنها حركت رأسها الى الناحية الاخرى . كانت تخاف من الوصول الى النهايات . تستشعر خطر الوصول، وتدرك استحالة العودة الى حيث كانت ، وانها بطريقة سحرية ستصبح انسانة اخرى غير بهية شاهين ، اي انها ستصبح نفسها الحقيقية .

لم تكن تعرف بدقة ما هي نفسها الحقيقية ، لكنها كانت تعرف عن يقين انها ليست بهية شاهين ، طالبة الطب المجدة حسنة السير والسلوك ، هذه الفتاة السمراء الشاحبة التي تقف مترددة امام الباب .

ان كلمة مترددة هنا غير دقيقة ، وغير صحيحة ايضا . فالحقيقة انها لم تتردد لحظة . كانت مشدودة برغبتها المبهمة في السير الى الامام وعدم التوقف ، والوصول الى النهاية الخطرة . تدرك انها ذاهبة اليها لا محالة ، فهي مصيرها . وانها ليست ذاهبة ذهابا عاديا ، وانما هي مدفوعة دفعا بشدة

رغبتها في معرفة مصيرها . وبسبب الخوف من هذه المعرفة الى حد الازدحام في الاتجاه المضاد .

لو كانت بهية شاهين حقيقة لاستدرت وسارت خطوة الى الوراء ودحات المشرحة واصبح اليوم كالامس ، كالغد ، ولسقطت في دوامه الايام العادية ، والحياة العادية ، والوجوه العادية . لكنها لم تكن بهية شاهين . كانت انسانية اخرى شيطانية لم تلدها امها ولا ابوها . ملامحها تشبه الملامح التي ساطعها في المراة ، ولكنها اكثر حدة ، والعيان سوادهما اكثر سوادا ، والانف ارتفاعا شدا ارتفاعا ، والبشرة سمراء ليست شاحبة ، وانما هي متقدة حمراء بلون الدم .

لم تكن بهية شاهين تعجبها . كانت ترى عيوبها بسهولة ، ونكره ذلك الصوت المطيع المؤدب ، وتضيق بتلك النظرة الهادئة الوداعة التي لا تنظر الى الاشياء وانما تترك الاشياء تنعكس عليها كصفحة ماء . ونكره ذلك الانف الذي لم يرتفع بدرجة كافية ، وتزدري ذلك الشحوب الذي تعرف سببه الحقيقي ، فهو شحوب البشرة حين يهرب منها الدم بسبب الخوف الذي يحاول الانسان ان يخفيه .

كانت بهية شاهين تخفي خوفها بتلك البشرة الشاحبة . لكن بشرة بهية شاهين لم تكن تخدعها . كانت تعرف اعماقها الحقيقية ، وتذكر كيف تخاف ومن اي شيء تخاف .

بهية شاهين كانت تخاف من نفسها الحقيقية ، من هذه الانسانية الاخرى التي تعيش داخلها ، تلك الشيطانية التي تتحرك وتنظر الى الاشياء بكل قدرتها على الرؤية ، ولانفها ارتفاعا حادة غريبة ، كحد السيف ، تشق به الكون نصفين

وتمشي الى الامام ، الى الامام بغير رفق ، ولا تردد ، لتصل الى النهاية ، نهاية النهاية ، وان كانت هي الهاوية السحيقة ذاتها .

لكن بهية شاهين كانت تتردد ، تتوقف في المنتصف ، تخاف من النهايات ، فالنهاية في نظرها هي النهاية ، هي الذروة الشاهقة المخيفة ، هي النقطة المعلقة في الفضاء لا شيء امامها ولا شيء خلفها ، القمة الساحقة ومن بعدها الفناء .

في منتصف الطريق كانت تقف ، تعرف انها واقفة ، لكنها آمنة في تلك النقطة المتوسطة ، نقطة الوسط في الحبل المشدود حيث تتعادل قوتا الشد ، نقطة الصفر . قوتها تساوي صفرا ومقاومتها تساوي صفرا . هي نقطة السكون الكامل والامن الكامل الذي لا يهدده شيء . بمعنى اخر هي نقطة الموت .

لم تكن بهية شاهين تعرف انها تقف في جوف الموت ذاته ، وانها ميتة لا محال . عقلها كان عاجزا عن ادراك هذه الحقيقة . كانت تظن بطريقة ساذجة مضحكة انها ستنجو او ان في استطاعتها ان تنجو بالابتعاد عن الخطر ، بالامتناع عن الحركة نحو الحياة الخطرة . لم يكن عقلها قادرا على ادراك انها في قلب الخطر ، وان اي حركة انما هي حركة نحو النجاة ، نحو الحياة ، لكنها لم تكن تعرف كيف تنقل نفسها ، ولما اذا تنقل نفسها ، وبمعنى اخر لم تكن تعرف ما الهدف من حياتها . حين حركت رأسها الى الناحية الاخرى ابتسم ، تلك الابتسامة الفريية . لم ترها في تلك اللحظة . همس بصوت

خافت :

— بهية شاهين ؟

فاجأها السؤال ، فتعلثمت لكنها تداركت الخطأ
بسرعة ، ورات الاسم فوق اللوحة البيضاء ، فردت بصوت
متردد :

— نعم .

ومد يده اليها وصافحها قائلاً :

— سليم ابراهيم .

اول يد تلتف حول يدها . كفه بحجم كفها واصابعه
طويلة رفيعة كأصابعها . يد حقيقية بلحمها ودمها ، تسري
حرارتها في كفها وتؤكد حقيقتها لانها من نفس حرارة يدها،
وحركة الدم في عروقها لها تحت الجلد ذبذبة ، كذبذبة
النبض فوق معصمها ، وكذبذبة الارض تحت قدميها، والهواء
من حولها .

حملق في عينيها السوداوين المتسعيتين بدعر لا يحدث
الا عند الاحساس بالخطر ، فاتسعت عيناه بدعر مشابه، لكنه
تدارك الخطأ بسرعة ، وعادت عيناه الى حجمهما المألوف ،
واجتازا في نصف دقيقة ما يجتازه الرجل والمرأة للتعارف
في نصف قرن .

قال لها :

— اهنتك على المعرض .

احمر وجهها بخجل مفاجيء ، وتعلثمت :

— لا زلت في البداية .

لم يكن بالمعرض الا ثلاثة او اربعة طلبة . كانوا في

الكلية بالآلاف ، ولكن ماذا يهم طلبة الطب في معرض للرسم ؟
بماذا تفيدهم لوحة او قصة او قطعة موسيقى ؟ لا شيء يهم
الا المشرحة والمحاضرات التي تحفظ وتدون في ورقة الامتحان ،
ثم تتسرب من الذاكرة من بعد .

وقفا امام لوحة واحدة متجاورين . قامتة طول قامتها ،
وكتفه بحذاء كتفها ، وذراعه بحذاء ذراعها ، وساقه بطول
ساقها . لم يكن يفصل بينهما الا مسافة صغيرة . مسافة
من الهواء لا تزال تمر بينهما وتفصل جسديهما . مسافة
طويلة بطول قامتها لكنها رفيعة كالشعرة . شعرة من الهواء ،
ورغم كونها هواء ، بل لانها هواء ، فهي مسافة عازلة من مادة
اخرى غير مادة جسديهما ، ورغم كونها رفيعة جدا ، بل
لانها رفيعة جدا ، فهي حادة جدا كحد السيف تفصل الجسد
عن الجسد وتقطع اللحم .

دهشت الدهشة نفسها التي تحدث في الاحلام ، حين
تحدث اكبر الاحداث في ثوان ويقابل الانسان الغريباء
فيعرفهم ، والاموات فيصافحهم ، ويطير في الجو بذراعيه
وساقيه ، ويفوص الى قاع البحر دون ان يفرق ، ويمشي على
الحيل الرفيع دون ان يسقط ، وتنهدم البيوت في ثانية ،
وتنبني البيوت في ثانية ، ويصبح اي شيء ممكنا وفي غمضة
عين .

تعودت على هذه الدهشة في احلامها ، ولكنها الان
يقظة ، عن يقين . حاولت ان تتأكد من يقظتها اليقينية ولكنها
عجزت . فليست هناك وسيلة مضمونة للتأكد اكثر من ان
تلمس جسدها . ولكنها تفعل ذلك في الاحلام ايضا حين

تتشكك في نومها . وهذا العجزيرعها ، فهي غير قادرة بحال من الاحوال على التأكد من شيء في حياتها . ان محاولة التأكد لا تفعل شيئاً سوى ان تزيد شكوكها .

عيناه السوداوان كانتا ثابتتين فوق اللوحة ، واللوحة سوداء كالليل الدامس ، فيه نقط بيضاء تبدو كالنجوم ، لكنها ليست نجوماً ، وانما هي فصوص صغيرة من الماس ، ولكنها ليست فصوصاً ، وانما هي عيون صغيرة تلمع بدموع شفافة ، ليست عيوناً ، وانما هما عينان صغيرتان في وجه الطفل النحيل الشاحب ، يسير في الشارع وحده ، أصابعه الصغيرة حمراء متورمة من طرف المسطرة الحاد ، عشرون مرة فوق كل اصبع ، بسبب الحقيبة المفقودة . الرجل الكبير ذو الشارب الطويل شده من ذراعه في ثنية الشارع فوقعت الحقيبة على الارض ، ويلدراعيه الصغيرتين وساقيه كان يضرب الساقين الكبيرتين ، لكنهما كانتا قويتين مفتوحتين كفكي القدر ، وهو بينهما منكفئ بوجهه فوق الاسفلت بجوار الجدار ، ومن فتحتي انفه يسيل خيط رفيع من الدم تجلط بعد فترة قبل ان يراه ابوه . لكن اباه نظر في عينيه وادرك من الشحوب ان الدم لا زال ينزف ، ففتش عن الجرح بين ذراعيه ، وبين ساقيه ، وحين رأى الدائرة الحمراء واضحة كقرص الشمس رفع كفه الكبيرة في الهواء وصفعه على وجهه .

لمحت اللعة السريعة فوق عينيه ، وعضلة صغيرة تحت عينه اليسرى ترتجف . فأشارت الى اللوحة الاخرى ، لكنه سألها بصوت خافت :

— كنت تبكين وانت طفلة ؟

دهشت وتلعثمت . تذكرت احلامها الطفولية ، والاله الخرافي واباها ، والشرطي ، والمدرسة ، وحافة المسطرة فوق اصابعها الصغيرة . وقالت :

— كانوا يضربونني من اجل واحدة اخرى اسمها بهية شاهين ، مطيعة ومؤدبة .

ضحك ضحكة قصيرة ، ونظر الى اللوحة الاخرى .

طلبة الطب بنظارتهم السميكة وكيعانهم المدببة يتزاحمون حول استاذ يجر عربة وينادي كالبائع المتجول على محاضراته المطبوعة بالبلوطة . وعلى باب الكلية نسوة بالجلاليب السوداء والطرح السوداء يشددنها حول اعناقهن من وراء جثة خارجة من المشرحة . وعلى محطة الترام رجل اعمى تجره امرأة كسيحة ومن خلفها اطفال اردافهم عارية . ومن داخل عربات الترام تطل رؤوس كبيرة متلاصقة متشابهة كعملات النقد المصكوكة ، وعلى ناصية الشارع ربض الشرطي ذو الشارب الاسود الطويل .

همس وهو واقف الى جوارها دون ان يتحرك :
— بهية .

انتفضت لصوته حين لامس اذنها ، واسم بهية اصبح شديد الخصوصية ، ليس كاسم بهية ، اية بهية ، ولكنها هي بالتحديد ، هي دون الاخرين ، دون الملايين ، بكيانها الخاص هذا الواقف الى جواره ، وبحدود جسمها الواضحة المنفصلة عن الفضاء الخارجي ، وخطوط يدها فوق اللوحة ، تصنع معالمها وحركتها الخاصة ، حركتها الارادية تنتزعها من بين

فكي الارادات الاخرى .

تلفتت حولها ، كان المعرض قد اصبغ خاليا الا منهما،
واقفين متجاورين ، غير متلامسين ، تفصل بينهما تلك
الشعرة الرقيقة من الهواء . رفيعة جدا وشفافة جدا كالهواء،
وهزة يد تكفي لتمزيقها ، اية حركة خفيفة تكفي لتبديدها.
لكن احدا منهما لا يتحرك ، منهما واقفان جامدان كتمثالين من
الحجر ، عيناها ثابتة كأنما في ذعر ، وبشرتهما شاحبة كأنما
هرب منها الدم .

كالخوف الذي نحسه في الاحلام ، لكنه خوف حقيقي .
تدرك حقيقته من رعشة جسدها المنتصب في وضع رأسي،
وبضع قطرات عرق ملموسة في كفها . وبحذر حقيقي حركت
قدمها فوق الارض ، ثم حركت القدم الثانية ، وبدأت تحمل
جسدها نحو الباب . لكن صوته جاء من خلفها :

— بهية .

توقفت . تسمرت في الارض لحظة ، وردت
بصوت خافت :

— نعم .

— الى اين تذهبين ؟

— لا ادري .

— تعالي معي .

— الى اين ؟

يا حساس ليس كامل الوضوح ادركت ان هذا الصوت المنتظم المتتابع لقدمين تنتقلان فوق اسفلت الشارع انما هو صوت حذائها . صوت مألوف لاذتها ، كاسمها حين يرن في الجو . لكن عقلها لا يطمئن كل الاطمئنان لاذتها ، وما يبدو مألوفاً لاذتها يصبح امام عقلها غريباً شديداً الغرابة . فما الذي اتى بقدميها فوق اسفلت هذا الشارع ؟ الشارع لم نره من قبل ، فليس هو احد شوارع القاهرة العادية ، تلك الشوارع المنبسطة في استواء نرى نهايتها امامها في وضع افقي . لكن هذا الشارع ليس افقياً . انه صاعد الى اعلى كطريق فوق جبل شاهق .

تساءلت في ذهنة : هل تركنا القاهرة ؟ وحينما سمعت صوته الى جوارها ادركت انها ليست وحدها ، وانهما وصلا نهاية شارع القصر العيني واجتازا فم الخليج واتجهما الى جبل المقطم . لم تكن اتت الى هذا المكان من قبل ، ولم تكن مشيت فوق شارع يصعد فوق جبل كما تمشي الان . كانت حياتها تسير في خط افقي مستو ، بيتها في الدور الارضي تدخله بصعود اربع درجات ، والترام تركبه بصعود درجة او درجتين ، والمشرحة في الدور الارضي ، والمدرج يرتفع عن فناء الكلية بثلاث درجات ، واقصى ما تصعده هو ست درجات لتصعد الى المعمل .

الآن ، شيء غريب يحدث لجسدهما وهي تبتعد عن

الارض . انه يصبح اقل نفلا . كأنها تتخفف في كل خطوة من انقال غير مرئية ، تلتف كالخلخال الحديدي حول رسفيها . وصوت حذاءها فوق الاسفلت اصبح اقل حدة ، وقدمها تتحركان وحدهما بخفة ، كأنما لم يعودا يحملان جسدها ، او ان جسدها اصبح بغير ثقل ، والهواء من حولها بغير صوت .

صفقت يديها وهي تجري بمرح : « اول مرة اصعد المفطم ! » وسمعت صدى صوتها يتردد مرة اخرى من سفح الجبل . توقفت ونظرت تحتها . رأت المدينة الكبيرة مستوية كالسطح الاخضر والبيوت كالمربعات الصغيرة ، وقدمها داخل حذاءها المألوف على حافة الجبل ، والى جوارهما قدمان اخريان داخل حذاء اسود غير مألوف .

رفعت رأسها مندهشة ، فالتقت عينها بعينه ، عينان سوداوان لهما نظرة تاقبة غريبة ، تنزع عن وجهها القناع ، وتشد الاغطية عن جسدها وتصبح بهما مرئية . حركت رأسها الى الناحية الاخرى فلم تجد الا السماء ومن تحتها الهاوية السحيقة . انتابها الاحساس الفامض الملح بان شيئا خطيرا سيحدث لها . قطعة الطوب تحت قدمها ستنفصل فجأة عن الجبل ويسقط جسدها تشده الارض بقوتها الرهيبة ويتناثر في الهواء اشلاء صغيرة كالدرات . وكما يحدث في الاحلام خيل اليها انها لو قفزت فسوف تنجو بجسدها من قبضة الارض وتطير منطلقة في السماء . ومدت قدما واحدة وكادت تتبعها القدم الثانية وتقفز ، لكن قوة غريبة شدتها الى الخلف . ظنت انها يده ، لكنه كان بعيدا عنها واقفا جامدا

كتمثال ، ذراعاه الى جواره ، وعيناه السوداوان ثابتتان في
عينيهما ، تنفذان الى السرداب الطويل الضيق في اعماقها ،
تريان اعماقها العميقة الخفية ، وذلك النبض السريع المتصل ،
كنيخ الكون في سكون الليل ، تلك الحركة السريعة المجنونة
قدفنها في طيات نفسها ، وتلف عليها احشاءها طبقة طبقة ،
لتصبح غير مرئية وحركتها الى الابد سرية .

هرب الدم من وجهها فاصبح شاحبا ، واصابعها
اصبحت باردة مثلجة ، واغمضت عينيهما بتلك الحركة المخادعة
التي تعلمتها في احلامها ، ثم فتحتهما ، وادركت انها لا تحلم ،
والعينان السوداوان لا تزالان في عينيهما ، والسواد ليس
اسود تماما ، وانما تشوبه زرقة ، زرقة عميقة بعيدة القاع ،
مجهولة الاغوار ، كزرقة السماء حين نحملق فيها بعيوننا
المفتوحة ، ونرى كأنها غير موجودة ، وتسري فوق الجسد
قشعريرة غير مفهومة ، ندرك بها اننا امام ضخامة الكون ،
ضخامة رهيبة مخيفة ، ضخامة صامتة ساكنة سكونا مفرعا ،
لانه ليس سكونا حقيقيا وانما هناك حركة من تحته ، حركة
خفية عنيفة تخطف بسرعتها البصر .

واخفت وجهها بكفيها وصرخت بشهقة غير مسموعة :

— سليم .

رد بصوته الخافت : نعم .

— انا خائفة .

— من ابي شيء ؟

— من الموت .

— الموت غير موجود .

— ولكنني خائفة .
— من الحياة ؟
— نعم .

من يراها في تلك اللحظة يلحظ انها ترتعد . لم يكن خوفها كالخوف الذي يبعدنا عن الخطر ، ولكنه خوف اخر يقربنا من الخطر اكثر مما يبعدنا عنه . رغبة جارفة عنيفة في استشعار الخطر حتى ذروته ، حتى نهايته ، نهايته الاخيرة التي تخلصنا منه الى الابد . كالعبء الثقيل كانت تحسه فوق جسدها منذ ان اصبح لها جسد . منذ ان انفصلت عن الكون وانسلخت عن جسد امها في كتلة صغيرة محددة ، تشدها الارض الى نحت ، وتشدها السماء الى فوق ويضغط عليها الهواء من كل جانب ، وجسدها الصغير دائما في قبضة الكون ، بين فكي الاسد ، وعن يقين تدرك ان الفك الاعلى سيهبط فوق الاسفل في لحظة قادمة لا محالة . او تشككت لحظة في هذا اليقين ربما فكرت في الهرب بطريقة او باخرى . لكنها كانت تحمل اليقين فوق جسدها في كل خلية تنبض وتعرف ان اللحظة ستأتي ، وان هذا النبض سيتوقف ، ومن شدة اليقين كانت ترغب في ان تأتي اللحظة ويتوقف النبض وينتهي العبء .
قالت بصوت خافت :

— ضمّني بكل قوتك حتى . .
توقفت ولم تكمل . كانت تريد ان تقول حتى يتوقف النبض . لكن رغبتها الخفية في الموت بدت في العلانية كرغبة محرمة ، وادركت بوضوح اكثر لماذا يحرم الناس الرغبات

الحقيقية ويشرعون الرغبات غير الحقيقية .
ان حركة واحدة منه كانت كافية لان تصل بها الى
النهاية . لكنها كانت تخاف من الوصول الى النهايات .
تستشعر خطر الوصول ، وتذكر استحالة العودة الى حيث
كانت ، وانها بطريقة سحرية ستصبح انسانة اخرى غير
بهية شاهين ، اي انها ستصبح نفسها الحقيقية .
اصبحت بعيدة عنه ، تسير بخطوتها السريعة الواسعة،
عينها السوداء وان مرفوعتان الى اعلى ، سوادهما ليس
اسود بما فيه الكفاية ، وذلك الأنف الذي لم يرتفع بدرجة
كافية ، والبشرة الشاحبة بسبب الخوف الذي يحاول الانسان
ان يخفيه .

جاءها صوته من الخلف :

— بهية .

لم تتوقف ولم ترد . صاح بصوت اعلى تردد صداه في
جنبات الجبل :

— بهية .

بدأت تجري مبتعدة عن الصوت ، لكنه احاطها من كل
جانب ، فسدت اذنيها بيديها ، لكنه نزع يديها عن اذنيها ،
وصاح بصوت غاضب :
— لماذا تذهبين ؟

حاولت ان تتحرك ، لكنه سد الطريق بذراعه ، دفعته
بكل قوتها فشدها اليه بكل قوته ، رفع وجهها بيده ، واصبحت
عيناه في عينيها، عينان غاضبتان، سوادهما تشوبه زرقاة
داكنة مخيفة كزرقاة بحر بغير قاع ، وحاولت ان تحرك راسها

اللى الناحية الاخرى لكنه ثبت رأسها بيده وقال بصوت غاضب :

— بهية شاهين ستجعلك دائما عاجزة عن بلوغاية قمة .
وتعيشين دائما في منتصف الطريق وتسقطين في قبر الايام
العادية ككل الملايين .

صوته كان يرتعد . وتركت يده رأسها فسقط فوق
صدرها يهتز ، وعيناها تهتزان ، وكل شيء في حياتها اصبح
مهزوزا . هذا الصوت المرتعد سمعته من قبل مرة . بل
مرتين ، بل مرات كثيرة ، بل كل يوم حين كانت تجلس في
الترام وترى قطع البشر المصكوكة ، وحين ترى الطلبة
بنظارتهم السميكة ورؤوسهم المنكفئة فوق الكشاكيل ، وحين
ترى الطالبات بعيونهن المتكسرة وسيقانهن الملتصقة ، وحين
نسمع المحاضرات وهي تتلى بذلك الصوت المتكرر المتشابه ،
وحين يرن جرس المنبه في اذنها كل صباح الرنين نفسه ،
وصوت ابيها يناديها النداء نفسه ، ولا شيء لا شيء يقطع
هذه الرتابة المستمرة الى الابد .

رغبة جارفة طاغية كانت تملكها لقطع هذه الرتابة .
رغبة في الصراخ بلا سبب لتقطع الصرخة الرتابة . في القفز
من النافذة وانكسار ذراعيها او ساقها . في اغماد سكين
المطبخ في صدرها لتصرخ من الالم ولتسمع صرختها بأذنها
وتدرك عن يقين انها حية وليست ميتة . رغبة جارفة وملحة
الاحساس بالحياة الى حد اقتراف جريمة قتل . في ان
تقتل جسدها بكامل وعيها وارادتها . كانت تدرك انها ليست
جريمة ، وانما الجريمة هي ان يقتل جسدها بغير

ارادتها . وعن يقين كانت تعرف ان هناك ارادة اخرى
تربص بها . وتنتهز الفرص ، اي فرص ، لسحقها ،
ارادة اخرى تربص بها . وتنتهز الفرص اي فرص لسحقها ،
كانزلاقة قدمها على سلم الترام ، او شرودها لحظة وهي
تعبّر الشارع ، او انطلاق رصاصة في الجو تصيبها خطأ .
ان موتها بهذا الشكل ، بالصدفة وبغير ارادتها ، يصبح
جريمة غير مشروعة . ان الذي يجعل الموت مشروعا هو ان
تكون هدفه المحدد ، ان تكون اختياره ويكون اختيارها .
حين رفعت رأسها من فوق صدرها لم تجده . التفتت
بسرعة خلفها ، فرأت ظهره يكاد يختفي في ثنية الشارع المتلوي
الصاعد . هتفت بصوت عال :

— سليم .

لكنه لم يرد . رفعت صوتها اكثر ونادت :

— سليم .

تردد صدى صوتها في جنبات الجبل عدة مرات ، لكن

احدا لم يرد .

في حجرتها الصغيرة فوق سريرها أصبح جسدها
ممدودا ، وعيناها السوداءوان تلمعان في الظلام كقصين من
الماس ، يمتصان السواد ثم يفرزانه شعاعا ابيض كشعاع
الضوء ، وملايين الذرات الدقيقة تسبح في الشعاع وتدور
في حركة دائرية منتظمة كحركة الكون الابدية ، كالدق المنتظم
في اذنيها يهبط الى عنقها وصدرها ويسري في ساقيها تنميلا
خفيفا كريان الدم ، ويصب في كفيها وقدميها ويتجمع في
اطراف اصابعها العشرين كرؤوس الدبابيس . كأرجل النمل
الدقيقة تمشي تحت جلدها وفوق عظامها وتكاد تسمع
ديبها كالازيز الخافت المتصل . كملايين الاصوات الخافتة
المتصلة التي تصنع صمت الليل .

رفعت جسدها من فوق السرير ، ولا مست قدميها
العريتان الارض الباردة فترنحت وكادت تسقط لولا قدرة
ساقها الطويلتين المستقيمتين وعضلاتهما القوية المشدودة ،
ترفعان جسدها منتصبا الى فوق ، بتلك السيطرة العجيبة
على التوازن ، والسير فوق الارض بتلك الخطوة القوية
الثابتة تشق الكون كريان ماهر يمسك بدقة سفينة متينة .
شدت اللوحة من وراء السرير ، وسلطت ضوء اللمبة
فوق الصفحة البيضاء وجلست على الشاشة الصغيرة فوق
الارض ، تحلق في ذرات العقيق السابحة في الشعاع ،
وحيثما ضغطت باصابعها على الفرشاة احست برؤوس

الدبابيس تحت جلدها ، وفي كل ضغطة تستشعر الالم
كوخز الابر ، لكن يدها لا تكف عن الحركة ، تروح وتجيء فوق
اللوحة بتلك الحركة الارادية ، بتلك الرغبة الجارفة الملحة
في استشعار الالم حتى نهايته ، في الضغط على اصابعها
حتى تنزف دمها وتنسحق ويكف الالم .

رغبة غامضة جارفة ، تهز جسدها ، وتهز الارض من
تحتها ، وتسري من اصابعها الى ذراعيها الى عنقها الى راسها
كأنما خلال سلك كهربى مشدود ، واصابعها تصبح مشدودة،
وعنقها مشدودا ، ورأسها ثابتا لا يتحرك .

من يراها في تلك اللحظة يظن انها مصلوبة ، لولا بحركة
يدها يظن انها ميتة ، او نائمة وهي جالسة . لكنها يقظة
شديدة اليقظة . عيناها المفتوحتان تريان ادق خط ، تلتقطان
النقطة واصابعها بطرف الفرشاة تستطيع ان تشق الكون
الاسود بخط رفيع ابيض كالشعرة ، كخط الافق يفصل
الارض عن السماء ، والنهار عن الليل ، خط ابيض تشوبه
حمرة ، حمرة داكنة قانية بلون الدم .

عيناها جين تريان اللون الاحمر القاني تتسعان ، كدعر
العينين امام الدم الحقيقي . ما الذي يخيفها في اون الدم ؟
تحملق في عروقها الزرقاء تحت جلدها ، وتحس ذبذبة
النبض المنتظمة المتصلة فوق معصمها ، دقة بعد دقة بعد
دقة ، وباحساس غامض خفي يخيل اليها ان الدقة القادمة
هي اخر دقة ، وان الصوت سينقطع ، وتكتم انفاسها ،
وترهف سمعها ، وتكاد تقبل اللحظة بغير دقة ، لكن اذنيها
سرعان ما تلتقطانها ، خافتة ومقبلة بنفس الحركة ، كالذقة

السابقة ، وكادقة اللاحقة ، كالازيز او الطنين المستمر في
اذنها ، ترغب بعنف في ان ينقطع ويتوقف ، وبعنف اشد
ترهف السمع في انتظار الدقة المقبلة تخاف الا تقبل .
تفتح عينيها في الصباح على صوت المنبه ، وعينا ابوها
الكبيرتان من فوق السرير ، تشدانها خارج السرير ، وخارج
حجرتها ، وخارج البيت وتتعبانها في الترام ، وفي الكلية ،
وكفه الكبيرة تدفعها في ظهرها داخل المشرحة .
نقف بجوار المنضدة الرخامية ، على قدم واحدة ،
والقدم الثانية ترفعها في الهواء كأنما نرفس احدا ، ثم
تضعها بكل قوتها وكل ثقلها على حافة المنضدة ، وقفة لا
نستطيع ان تقفها اية فتاة في ذلك الوقت ، ولا اي فتى .
الوحيد الذي يستطيع هو الدكتور علوي ، يمر بين المناضد
بنظارته البيضاء ومعطفه القصير الابيض ، وعند منضدتها
يقف ، قدم على الارض وقدم على حافة المنضدة بجوار قدمها ،
وعيناه الزرقاوان تصبحان في عينيها . لكنها لا تطرق . عيناها
السوداوان مرفوعتان الى اعلى شاخستان الى الامام ،
تحميلقان في الفضاء كأنما تبحيان . تفرزان ملايين الذرات
السابحة في الجو ، وتفحصان الكائنات الدقيقة العائمة في
الكون ، وتبحشان بين آلاف الكتل المتشابهة عن الوجوه غير
العادي ، عن العينين اللتين تنظران اليها فتصبح بهما مرئية .
العينان السوداوان اللتان تلتقطان وجهها من بين الوجوه ،
وتنتشلان جسدها من بين ملايين الاجساد الضائعة في
الكون .

لكن الوجوه كلها متشابهة في المشرحة ، وفي الشارع

وفي الترام ، وفي فناء الكلية الواسع المزدحم تحس انها
تفرق في بحر وحدها ، دون ان يراها احد ، ودون ان يميزها
احد ، وان وجهها اصبح كوجه زميلاتها ، لا فرق بين بهية
او علية او سعاد او ايفون . وتجري بغير وعي هاربة من
الزحام الى ذلك الركن الصغير المنعزل بحذاء سور الكلية ،
وراء المبنى الضخم . تجلس على المقعد الخشبي بغير ظهر ،
تجلس محنية الى الامام ، تحمق في قطعة صغيرة من الارض
بحجم كف اليد ، لم ينبت عليها العشب الاخضر ، ودون بقية
الارض من حولها ظلت طينية اللون ، مشققة ، ومن بين
الشقوق الرفيعة تدخل وتخرج ملايين الكائنات الدقيقة
بحجم النمل .

بهية ! رن الاسم في اذنها غريبا كاسم واحدة اخرى ،
وانتفضت من فوق المقعد . رات امامها العينين السوداوين
تخرقان عينيها ، تنزعان عنها القناع وتشقان الغطاء ، وتنفدان
بغير رفق ولا تردد الى السرداب الطويل الضيق في اعماقها .
ان لحظة اخرى واحدة كافية لان يصل الى النهاية .

لكنها هتفت بصوت خافت :

— سليم .

ظل واقفا صامتا ينظر اليها . قالت :

— لماذا تركتني بالامس ؟

عيناه ثابتتان في عينيها لا تتحركان . اخفت وجهها

بيديها وبكت بصوت مسموع .

سألها بصوت هامس :

— لماذا تبكين ؟

قالت :

— انت لا تحبني بما فيه الكفاية .

قال :

— انت لا تحبين احدا بما فيه الكفاية . تخافين من
الحب كالموت وتقفين في منتصف الطريق ، هذه هي بهية
شاهين .

صرخت :

— لا .

ناولها منديله الابيض فمسحت دموعها . لمعت عيناها
السوداوان في ضوء الشمس فابتسم .

سألها :

— ماذا فعلت ليلة الامس ؟

ردت :

— لا شيء .

سألها :

— الم ترسمي شيئا جديدا ؟

قالت :

— لا .

سكت لحظة ثم سألها :

— وماذا ستفعلين الليلة ؟

قالت بصوت خافت :

— لا ادري .

وضع يده في جيبه واخرج مفتاحا صغيرا . نا-له لها،
وهو يقول :

— هذا مفتاح شقتي بالمقطع . تعالى في اي وقت بعد
الثالثة . سانتظرك .

اختفى بسرعة وراء مبنى الكلية الضخم ، وظلت هي
واقفة في مكانها . اصابعها تلتف حول شيء معدني صغير ،
رأسه مستدير ناعم يتوسطه ثقب ، وذيله له اسنان صغيرة
مشرشرة ، تحسستها بطرف اصبعها فسرت في جسدها
قشعريرة ، كحبات الرمل الناعمة الساخنة ، تمشي في
ذراعيها وتهبط الى ساقيها ثم تصعد الى رأسها وتهبط
الى عنقها وذراعيها وتتركز في كفها المتكور حول ذلك الشيء
الصغير .

كأي مفتاح من مفاتيح الابواب ، ولكن تدرك ان الاشياء
تتغير بتغير احساسها ، ومفتاح معدني صغير قد يصبح فجأة
مفتاحا ذريا او سحريا . يحرك الهواء والضوء من حوله
في ذبذبة دائرية ، وينفث في الجسد حرارة تسري فوق
الجلد كقشعريرة البرودة ، ويتمدد فوق الكف ضخما يملأ
الكف ويزيد ، طويلا بطول الذراع الممدودة ، امتداد الشجرة
في السماء ، او الارض المنبسطة الممتدة بامتداد البصر .

احست قطرات العرق في كفها الساخنة تحت الجسم
الصلب واطراف اصابعها حين لامست سطحه المعدني اصبحت
باردة مثلجة . لفته في منديلها الصغير ، ووضعته في
جيبها ، وبخطوتها الواسعة السريعة كوئبات الفهد
اجتازت الفناء المزدحم . حاصرتها العيون من كل جانب ،
فوضعت يدها فوق جيبها لتخفيه ، وكأنه قادر على ان يشق

بمعدنه السحري منديلها وجيبها ويصبح امام العيون واضحا
ومرثيا كقرص الشمس .

ضفطت بيدها فوق جيبها عن غير وعي ، واتجهت ناحية
باب الكلية ، لكنها سمعت صوتا ينادي :
- بهية .

استدارت ورات الدكتور علوي امامها بعينيه الزرقاوين
من خلف النظارة البيضاء ومن حوله بعض الزميلات .
قال بلهجة الاستاذ :

- بهية ، اين انت ؟ كنت ابحث عنك .

ارتبكت لحظة ثم قالت :

- كنت في حجرة الطالبات .

قال بصوت يكاد يكون امرا :

- تعالي معي الى مكتبي خمس دقائق .

همست في اذنها زميلة :

- سيضربك على اصابعك بالمسطرة .

ضحكت واحدة اخرى وهي تضع يدها على فمها قائلة:

- سيشرحك بالمشروط .

مدت احداهن عنقها وقالت :

- سيمزقك اربا .

تنهدت واحدة :

- يا بختك يا ريتني انا .

شهقات ، زفرات ، تنهيدات ، انفاس متأججة برغبة

دفيئة مدفونة في الجسد كالجرثومة ، تريد ان تنهش

الجسد نهشا ، وتمزقه ، وتسحقه عن آخره فلا يبقى منه شيء .

دخلت وراءه مكتبه . كان قد خلع المعطف الابيض والنظارة البيضاء ، وعضلات الاستاذ المشدودة ، واصبح كشاعر ، رياضي ، ممشوق الجسم ، بشرته بيضاء محمرة ملوثة بالشمس ، وعيناه الزرقاوان اكثر اتساعا كأنهما مندهشتان .
— ماذا حدث لك هذه الايام يا بهية ؟ لست بهية التي عرفناها .

انتفضت في ذعر كأنه نزع فجأة جزءا من ملابسها ورأى منها شيئا خاصا جدا . شيئا كانت تخفيه عن الاعين ، وتحفظه لنفسها . وشدت حول عنقها ياقة البلوزة وقالت بصوت غاضب :

— انا ككل يوم .

رد بلهجة الاستاذ الواصل الهادئة :

— والتزويغ من المشرحة ؟

قالت :

— كنت مشغولة بالمعرض .

قال :

— لا يا بهية ، ليس هو المعرض . انت مشغولة

بشيء آخر .

انفجرت شفتاها في دهشة ولكنها زمتها بسرعة كأنما في غضب ، واستدارت ناحية الباب لتخرج ، لكنه سد عليها الطريق ، وقال بلهجة الاستاذ :

— انت مشغولة بشيء آخر يا بهية .

رفعت عينيها في عينية الزرقاوين وقالت بحزم :
- لا .

وكانما لم يسمع ردها وسأل بصوت هاديء شديد
الثقة بنفسه :

- ما الذي يشفلك يا بهية ؟
وردت مرة اخرى :
- لا شيء .

شيء ما بين الدكتور علوي وبينها ، شيء غير محدد
وغير مفهوم ، ولكنه موجود ومحسوس . تحسه في عينية
الزرقاوين حين ينظر اليها ، وفي صوته حين يحدثها ،
وبعض الاوقات تفكر في كنه هذا الشيء ، ماذا يكون . بل
انها راته مرة في احلامها . كان يرتدي قميصا وبنطلونا ، وجسمه
ممشوق كشاب رياضي ، وذراعه مشعرة محمرة ملوحسة
بالشمس ، رفعها وحاول ان يضمها لكنها افلتت . استطاع
ان يحوطها بذراعيه الاثنتين ونزع يدها من فوق شفتيها
وقبلها . وصحت من النوم وهو لا يزال يقبلها ، وحين
دفعته بيدها ولم تجد احدا ادركت انها كانت تحلم . ودهشت
كيف يفرض الدكتور علوي نفسه عليها في احلامها ، مع
انها في يقظتها لا ترغبه ، بل انها تكاد تكرهه . تكره
عينية الزرقاوين المقتحمتين ، وتكره ضحكته . فهو لا
يضحك كما يضحك الناس ولكنه يضحك بوقار واستاذية
وقهقهته مصنوعة مبتورة لا تكاد تسمع حتى تنقطع .
يشعرهم دائما انه استاذ ، يعرف ما لا يعرفون ، ويملك
ما لا يملكون ، وحركة ساقيه وهو يمشي فوق المنصة كحركة

ساقى الاساتذة بطيئة وواثقة من نفسها الى حد الاسترخاء .
واليتساه من الخلف مترهلتيان بعض الشيء ، بسبب
الجلوس لفترات طويلة فوق مقعد وثير مريح .

كانت يده المشعرة المحمرة قد اصبحت فوق مقبض
الباب ، ويده الثانية فوق كتفها ، تربت عليها بحركة الاساتذة
حين يربتون على اكتاف الطلبة ، لكن يده حين لامست كتفها
بقيت فوقها ثابتة لحظة كالضغط السريعة ، او انقباض
عضلة باليد لا ارادية ، وصوته اعترته رعشة وهو يقول:

— بهية تعرفين انني اهتم بك ..

تداركها بسرعة بنبرة الاستاذ الهادئة الواثقة:

— والامتحان اصبحت قريبا ، ويهمني ان تنجحي .

على محطة الترام نظرت في الساعة : كانت الثالثة
والنصف ، دق قلبها دقة عالية ، وامتدت يدها لتحسس
جيبها . اصطدم طرف اصبعها بالحافة المعدنية الصلبة
فابتعدت يدها مرتجفة كأنما تحمل في طيات ملابسها قنبلة ،
ما ان تلمسها حتى تنفجر ، وما ان تنفجر حتى يتناثر جسدها
فوق الاسفلت اشلاء . وجاء الترام بزحامه وضجيجه
فابتعدت عن الناس حتى لا يصطدم بها احد . عدلت عن
ركوب الترام وقررت العودة الى البيت سيرا على الاقدام .
اجتازت شارع القصر العيني واتجهت الى شارع النيل .
الشمس كانت منعكسة بقوة على صفحة الماء ، والهواء الدافئ
المحمل برطوبة خفيفة منمشة يلمس وجهها برقة . اغمضت
عينها تحت اللمسات الدافئة . طريق الكورنيش كان خاليا
في ذلك الوقت من الظهيرة ، ونوافذ البيوت مغلقة بالشيش ،
ولا احد امامها او خلفها ، ووقع قدميها فوق الاسفلت في

اذنيها واضح بتلك الدقات المنتظمة المألوفة . لكن ما يبدو مألوفاً لاذنيها يصبح امام عقلها غريباً شديد الغرابة ، وهذه الدقات فوق الاسفلت ليست وقع قدميها ، وانما وقع قدمين اخريين خلفها . استدارت فلم تجد احدا . شعرت بشيء يشبه خيبة الامل . كأنها كانت تتوقعه ، او كأن بينهما موعداً ولم يأت . وفي الوقت نفسه كانت تدرك انه ليس خلفها ، وانما هو ينتظرها في شقته بالمقطم ، في اي وقت من بعد الثالثة .

رمقت الساعة بطرف عين . كانت الرابعة الا ربعا . صعد قلبها ثم هبط بخبطة واحدة ، وعيناها انسوداوان مرفوعتان الى اعلى ، وجهها الطويل النحيل شاحب ، وشعرها الاسود القصير متناثر فوق عنقها واذنيها ، وكتفاها النحيلتان تحت البلوزة لهما استدارة خفيفة ، ونهداها الصفيران يختفيان ويظهران مع انفاسها الصاعدة الهابطة ، واصابعها الحمراء تلتف حول الحقيبة الجلدية المنتفخة بكتب التشريع . اصبحت في ميدان فم الخليج . امامها شارع النيل والكوبري الذي يقود الى بيتها في الروضة . وعن يمينها النيل ، وعن يسارها الشارع الصاعد نحو المقطم . من يراها يظن انها ستستدير بجسدها ناحية اليسار وتتجه الى الشارع — لكنها لم تستدر . ظلت واقفة . كانت تدرك ان استدارتها هذه ستعني لها شيئاً ضخماً ، شيئاً خطيراً . ستعني انها لم تصبح بهية شاهين ، وانها اصبحت الانسانة الاخرى الاقوى التي بقدر ما تريدها ترهبها . لحظة خطيرة مخيفة ، تشبه الموت ، بل هي نوع من

الموت فعلا ، يموت فيها الانسان ويولد انسان اخر ، لحظة قصيرة يستدير فيها جسدها ناحية اليسار ، لا تستغرق من الزمن الا ما تستغرقه قدم ترتفع فوق الارض ثم تنخفض او جفن ينخفض فوق العين او يرتفع ، ومع ذلك بدت لها كل لحظة العمر كله ، ككل السنين التي عاشتها والتي ستعيشها ، ككل حياتها وقد تكورت واصبحت بحذاء قدمها ما ان ترفع قدمها وتخفضها حتى تدوسها وتسحقها كمسحوق ناعم من الرماد .

ولم يعد الشارع عن يسارها شارعا . الشوارع ايضا ككل الاشياء تتغير بتغير نظرتنا لحظة بعد لحظة ، وتغير الدم في عروقنا دقة وراء دقة ، وهواء الصدر مع كل نفس جديد ، وماء البحر مع كل موجة . اصبح الشارع طويلا بارزا من بطن الجبل كذراع طويلة ممدودة ، ومن فوقها شريط السماء المحصورة بين الجبل والمباني كالذراع الثانية . ذراعان ضخمتان كذراعي الاله الخرافي ، منفرجتان امامها كفكي القدر ممدودتان في الافق ، بطول الافق ، وبعرض الافق ، مرفوعتان نحوها ومفتوحتان تنتظران استدارة جسدها نحوهما .

عن يقين كانت تريد ان تستدير ، وتلقي نفسها بين الذراعين الممدودتين ، لكن جسدها قاوم الاستدارة ، ولم تستطع ان ترفع قدمها عن الارض . انتفضت وهي واقفة ، فسقطت الحقيبة الجلدية من يدها وتبعثرت كتب التشريح على الارض .

رمقت بطرف عين التكت البيضاء فوق الغلاف السميك

« بهية شاهين » اولى مشرحة ، وتقلصت ذراهاها في الهواء ،
رفضتا ان تلتقيا الكتب ، لكن جسدها انحنى فوق الرصيف
فلمت الكتب ووضعتهما في الحقيبة . هذه الانحناءة كانت
كافية لان تعيد اليها بهية شاهين بكل قوتها وسطوتها ،
وتوارت الانساناة الاخرى في سردابها العميق ، وبدأت قدماها
تدبان بسرعة وقوة في الطريق نحو بيتها .

حركة جسمها وهي تسير تبدو حركة قوية منتصرة ،
لكن احساسها الحقيقي كان شيئا اخر . كانت تشعر بالهزيمة
وحيثما رأت بيتها من بعيد غاص قلبها ، كسجين مؤبد
مساك الى السجن ، مساق بقوة كقوة الحديد ، تلتفت حول
يديها وقدميها ، كالسلاسل تماما كانت تحسها حول
معصميها ورسغيها ومنقها ، تشدها بغير رفق ولا رحمة
الى ذلك البيت الاحمر الصغير .

ومنذ تلك اللحظة لم يعد بيتها هو بيتها ولا حجرتها
هي حجرتها ، ولا سريرها هو سريرها . الاشياء تتغير
كالانسان ، ليس تغيرا في الشكل فحسب وانما في المعنى
ايضا . حقيقة الاشياء نحن لا نعرفها ابدا ، ولا نراها الا بمقدار
ما نعيها . ان وعينا هو الشيء الوحيد الذي يحدد شكل
الكون من حولنا ، وحجمه ، وحركته ، ومعناه .

كانت نعي بيتها كالمكان الامن ، تلوذ به من زحام الترام ،
وزحام الكلية ، وحرارة الشمس وبرد الشتاء ، وتجد فيه
اباها الذي يعطيها المصروف اليومي وامها التي تطعمها ،
واخوتها الذين ترى في ملامحهم شيئا بلامحها ، وكل
شيء من حولها يبعث على الطمانينة .

لكن البيت الان اصبح كالسجن ، وابوها كالسجنان ،
رابض في الصالة على كرسيه الاسيوطي يرقب حركاتها
وسكناتها ، يحاول ان يستكشف من خلف ملامحها خبايا
نفسها ، واصابع امها لا تزال بصماتها فوق اوراقها الخاصة
في درج مكتبها ، وتحت وسادتها ، تفتش عن اسرارها تبحث
عن خطاب غرام او صورة شاب ، وعيون اخوتها من حولها
في كل مكان تحاصرها بالاسئلة . الادهي من ذلك تلك
الزيارة التي تكاد تكون يومية ، حين ياتي عمها وزوجته
وابنه خريج التجارة (والمرشح للزواج منها منذ الطفولة)
وتلك الابتسامة البلهاء على شفثيه ، والسعادة الغبية القاتلة .
ادركت عن يقين انها لا تنتمي الى هذه الاسرة ، والدم
الذي يجري في عروقها ليس من دمهم . وان كانت رابطة
الدم هي التي تجمعها بهذه الاسرة فهي تشك في هذه الرابطة .
تشك في الدم الذي يجري في عروقها او الذي يجري في
عروقهم . ان امها لم تلدها . ربما وجدوها لقيطة بجوار
جامع بل لو كانت امها هي التي ولدها حقاً ، وان اباه كان
مشاركاً معها او غير مشترك ، فليس معنى ذلك انها تنتمي
اليهما . ان تلك الرابطة التي تسميها رابطة الدم ليست
رابطة في نظرها . فهي رابطة بغير ارادة من احد ، بغير
حرية . انها الصدفة المحضة وحدها هي التي جعلتها ابنة
امها وابيها بغير اختيار منهما ولا منها .
لم تدرك كيف وصلت الى هذا المدى في التفكير . لكنها
كانت تريد ان تصل الى حقيقة واحدة هي ان ارادة الانسان
وحدها هي التي تجعل للرابطة معنى . وكانت تريد ان تصل

من هذه الحقيقة الى حقيقة اخرى ، وهي انها تريد ان تكون رابطة بينها وبين سليم ، رابطة من نوع ما ، من أي نوع ، تجعله حين يراها من وسط الالاف يتوقف ويتجه نحوها ، وتجعلها هي من دون الالاف تتوقف وتتجه نحوه ، ان هذه الحركة الارادية نحوه هي الشيء الوحيد الذي يكسب الرابطة معنى ، بل يكسب حياتها معنى ، فما معنى حياتها؟ لم تكن تعرف لحياتها معنى . لم تعرف بالضبط ماذا تريده بحياتها . كل ما كانت تعرفه انها لا تريد ان تكون بهية شاهين ، ولا تريد ان تكون ابنة امها او ابيها ، ولا تريد ان تعود الى البيت ، ولا تريد ان تذهب الى الكلية ، ولا تريد ان تكون طبيبة ، ولا تريد ان يكون لها مال كثير ، ولا زوج محترم ، ولا اطفال ، ولا بيت ، ولا قصر، ولا اي شيء من هذه الاشياء . ماذا كانت تريد ؟

عقل بهية شاهين لم يكن عقلها . كان لها عقلها الاخر الخاص . تحسه تحت القشرة المخية كبيرا ضخما يملأ مجتمها، ينبئها بطريقة شيطانية خفية ان كل تلك الاشياء ليست شيئا ، وانها تريد شيئا اخر ، شيئا مختلفا تماما ، مجهولا ومعلوما في نفس الوقت ، محددًا وغير محدد ، تستطيع ان ترسمه بسن الريشة فوق الصفحة البيضاء خطأ اسود محددًا ، ولكنها حين تنظر اليه بعينيها السوداءين يصبح خطأ طويلا ممدودا في الافق ، بطول الافق ، وبعرض الافق ، لا تعرف له اولا ولا اخرا .

كالتائهة كانت تسير من شارع الى شارع ، كدرة هواء ضائعة يسر ملايين الذرات السابحة في الكون ، تاركة

نفسها للهواء يحركها في اي اتجاه ، تبدو من الخارج
كالمستسلمة تماما للضياح ، كالمستمتعة بالدوبان والفناء الكامل
في الكون ، لكنها من الداخل تقاوم ، تشد عضلاتها وتقاوم
الحركة اللاارادية ، ترفض الاستسلام لها ، وبكل قوتها
تمنع قدميها من الحركة ، بكل قوتها تريد ان تقف .
كالحصان الجامح وجدت نفسها واقفة بجسدها
الطويل النحيل منتصبا ، عيناها السوداوان مرفوعتان الى
أعلى ، وشعرها الاسود متناثر فوق جبهتها واذنيها وعنقها
من الخلف ، وانفها مستقيم حاد ، وشفتيها مزمومتان في
غضب .

تلفت حولها لتعرف اين هي . لكنها كانت في مكان لم
تأت اليه من قبل . والبيوت لم ترها والناس من حولها يروحون
ويجيئون في حركة المرور الدائبة ، ولا احد يعرفها ولا هي
تعرف احدا . صعد الدم الى قلبها في دقة كبيرة
وتلاحقت انفاسها كالذي يفرق في بحر ، وكأنما تحولت
الحياة كلها من حولها الى سيولة دائمة ، من تحتها ماء
ومن فوقها ماء ، ولا تستطيع يداها او قدمها ان تمسك
بشيء صلب .

باصابع مرتجفة مدعورة حركت يدها كالذي يبحث
وسط الماء عن قارب نجاة ، وحينما لامس اصبعها الحافة
الصلية في جيبها التفت اصابعها الخمسة حول المفتاح المعدني ،
وضغطت عليه ، كأنما تريد ان تتأكد من حقيقة وجوده ، او
كأنما تستمد من صلابته احساسا بأن في الحياة شيئا له
قوام ، شيئا يمكن الامساك به في الاصابع .

وبالسرعة نفسها ، وبالقوة نفسها ، التي يندفع بها
الجسد الفارق حين يمسك شيئاً صلباً أصبح جسدها يندفع،
وقدماها تدبان فوق الاسفلت بقوة وبسرعة ، وعيناها تبحثان
في الشوارع المتداخلة المتشابكة عن الذراع الممدودة من قلب
الافق ، والسماء الزرقاء المحصورة بين البيوت والجبل .
كادت تجري ، بل انها جرت فعلا . وبحركة سريعة من عينيها
نظرت الى معصمها . كانت الساعة الرابعة والنصف . صعد
قلبيها ثم هبط ، وصدرها أصبح يعلو ويهبط ، يعلو
ويهبط وقدماها تتلاحقان كأنهما في سباق مع انفاسها .

انفتح الباب الصغير الذي يتدلى فوقه غصن لبلاب اخضر،
ورات الوجه الطويل النحيل بلامحه العميقة المستفرقة الى
حد الارهاق ، كأنه لا ينام ، ولا يأكل ، ورأسه ينوء بهموم
العالم والبشر ،وعيناه الزرقاوان العميقتان الى حد السواد او
السوداوان الى حد الزرقة ، ونظرته النافذة تفتحم الاغطية
والاقنعة وتصل الى القاع البعيد .
— اهلا بهية .

دهشت لصوته حين لامس اذنها ، واسم بهية اصبح
شديد الخصوصية ، ليس كاسم بهية اي بهية ، بل هي
بالتحديد ، دون الملايين ،بكيانها الخاص هذا الواقف في
الصالة الغريبة .

الصالة تكاد تكون عارية بغير اثاث ، الا كنبه كبيرة
في الركن ومنضدة عليها زهرية ورد والنافذة الزجاجية
الكبيرة من ورائها الجبل الضخم . جلست على الكنبه ،
واستدار هو ليفلق الباب خلفها ، فأصبح ظهره امام عينيها،
ووجهه وعيناه وملامحه لم تعد مرئية ، قيدا كرجل غريب
لا تعرفه . وحينما سمعت صوت الباب يغلق تذكرت على
الفور انها بهية شاهين ،طالبة الطب المجدة ،حسنة السير
والسلوك ، وانها اصبحت الان بالتحديد في بيت رجل غريب،
ظهره كظهور الرجال ،ولا شيء يربطها به . ودهشت الدهشة

اتني تحدث في الاحلام ، حين يجد الانسان نفسه في أماكن غريبة لم يعرفها من قبل ، ويقابل اشخاصا غرباء لم يقابلهم من قبل .

وبدا عقلها يعمل بسرعة الحركة في الاحلام ، مصورا لها اشياء كثيرة . تصورت اباها قابعا في كرسيه الاسيوطي في الصالة يحتسي قهوة الصباح ، يفتح الجريدة فوق الصفحة الاولى فيرى جسد ابنته بهية عاريا ومقتولا في شقة شاب اعزب بمدينة المقطم . ابوها كان يؤمن ان بهية لا تعرف الا الطريق من البيت الى الكلية ، وانها تصلي وتصوم ، وتذاكر في اليوم اربع ساعات ، وحين تسمع اغاني الحب في الراديو تغلقه ، وحين يضحك معها احد شباب الاسرة تنهره ، وانها ليست كاية فتاة اخرى ، جسمها ليس كجسم اية فتاة اخرى ، بل انها ليس لها جسم ، وليس لها اعضاء ، وبالذات تلك الاعضاء الجنسية التي يمكن ان يثيرها او يحركها واخذ من الجنس الاخر .

خيالها عجز عن تصور الصدمة ، حين يرى ابوها جسد ابنته المطيعة المؤدبة عاريا ، ليس في حجرة نومها الخاصة مثلا ، وانما في شقة شاب وليست عيناه فحسب هما اللتان تريانها وانما الاف العيون التي تقرا جريدة الصباح ، ومنها عيون افراد الاسرة العريقة الكبيرة المنتشرة في القطر من اسوان الى الاسكندرية ، وخاصة عيون الفلاحين منهم والصعايدة ، وعيون موظفي وزارة الصحة جميعا ، رؤسائه ومروسيه الذين اقنعهم على مدى ثلاثين عاما انه المدير الكفاء ذو الاصل العريق والسمة

الشريفة ، وابنائوه وبناته جميعا نجباء حسنو السير والسلوك
وخاصة بهمة طالبة الطب المجدة .

ارتجفت الرجفة ذاتها التي تحدث في الاحلام ، وايقنت
انها على استعداد لان تدفع عمرها كله من اجل ان تمنع عن
ايها هذه الصدمة ، وانه من الممكن ان تموت ويتمسرى
جسدها ويتمزق اربا بشرط الا يرى ابوها ولا يعرف . كانت
تحب اباهما رغم كل شيء ، وحين يمد لها يده كل يوم
بالورقة البالية ذات العشرة قروش يغوص قلبها في صدرها
ثقيلاً كقطعة حجر ، وحين تضم اصابعها الورقة الندية
برائحة عرقه تكاد تخفي وجهها وتبكي . كانت تعلم انه يكذب
ويشقى من اجلها واجل اخوتها ، واحيانا تراه وهو يشق
الزحام بجسده النحيل ذي الظهر المحنى ، وحين يجتاز
الشارع المكتظ بالعربات السريعة ترتجف خشية ان تدهمه
عربة . وذات مرة رآه واقفا على سلم الترام من شدة الزحام ،
وخيل اليها ان السلم سيهوى تحت الاقدام الكثيرة ويصبح
جسد ايها تحت العجلات . وذات مرة ذهبت الى مكتب
ايها في الوزارة ، فلمحته في الردهة يسير خلف رئيسه ،
ظهره اكثر انحناء ، ومضلات عنقه اكثر ارتخاء ، ورأسه يميل
الى الامام في خضوع ، ورئيسه يسير امامه بحركة متعالية
تجعل ظهره مشدودا ومضلات عنقه مشدودة ورأسه مائلا الى
الوراء في كبرياء . في تلك اللحظة ارادت ان تنشق الارض
وتبتلعها ، وحين ركب ابوها الترام الى جوارها وأبتسم لها
لم تبتسم له ، وظلت تتفادى النظر في عينيه حتى اتى اليوم
التالي ، وحين مد لها يده بالورقة البالية المبللة بعرقه

كادت ترفضها ، لكنها اخذتها وشعرت بالمهانة ، وبصعوبة
شديدة رفعت عينيها في عينيه ، ورات سوادهما يترقرق
من تحت دمة شافة غير مرئية .

انتفضت لتقف ، وقبل ان تصبح واقفة تماما كان قد
استدار ، واصبح وجهه امامها ، وعيناه في عينيها فصرى
في كيانها ذلك التيار السحري الذي يشعرها على الفور
ان كل شيء في الزمان والمكان خارج هذه اللحظة بلا معنى
وبلا وجود حقيقي ، وأن حياتها كلها من خلفها ومن امامها
ليست حياتها وانما حياة انسانة اخرى ، ولا شيء يربطها
بالعالم الذي عاشت فيه ، او الناس الذين عرفتهم ، لا
شيء يربطها بشيء سوى هذا الوجه بعينه السوداوين
الزرقاوين تنظران في عينيها وتؤكدان وجودها الحقيقي .
- سليم .

رن صوتها في الصالة غريبا ، كصوت واحدة اخرى ،
فاندھشت ، والاسم ايضا « سليم » اصبح في اذنها غريبا
كاسم واحد اخر . رددته بينها وبين نفسها عدة مرات لتألف
ذبذباته في اذنها ، وفي كل مرة يصبح اكثر غرابة عن المرة
السابقة . اسمه سليم واسمها بهية ، واسمه ليس اكثر غرابة
من اسمها حين يرن في اذنها . لكن ما ابعد الاسماء عن
حقيقة الاشياء ، وما اعجز حواس الانسان عن ادراك ما
يحسه الانسان !. ان ما تحسه هي نحوه هو شيء اكثر من
مقدرة اذنيها على السماع ، وعينيها على الرؤية ، وانفها على
الشم ، واصابعها على اللمس . وايقنت في تلك اللحظة ان

للإنسان حواس أخرى مجهولة ، لم تكتشف بعد ، وإنها كامنّة ،
منكمشة في أغوار النفس ، ولكنها أكثر من الحواس المعلومة
قدرة على الإحساس ، فهي الحواس الحقيقية الطبيعية ، لم
تفسدها التربية في البيوت ، ولا التعليم في المدارس ، ولا
النظم ولا القوانين ولا التقاليد ولا أي شيء . كالنهر
الطبيعي المنطلق بغير سدود وكالمطر المنهمر من السماء بلا
حواجز ولا موانع إلى أن يكف وحده حين ينضب .

كانت قد أصبحت جالسة على الكنية ، وهو إلى جوارها
وامامها النافذة الزجاجية والجبل من خلفها ، ومن خلف الجبل
السماء الزرقاء الملوحة بحمرة الشمس وقت الاصيل . انعكس
ضوء الشمس على عينيها كالإبتسامة اللامعة فضحكت
بصوت منطلق وقالت وهي تشير إلى النافذة :

— المنظر من هنا رائع .

ظنت أنه سيحول عينيه عن عينيها وينظر إلى النافذة ،
لكنه لم يفعل ، وظلت عيناه في عينيها ، تلعثت وهي تقول :

— لماذا لا تنظر ؟ اليس المنظر رائعا ؟

قال وعيناه لا تزالان في عينيها :

— أنت أروع من المنظر .

أبعدت عينيها عن عينيه ، فاندحش وقال :

— لماذا تبعدين عينيك ؟

اضطربت وقالت :

— لا أدري . ولكن عينيك تبدو أن حياتنا كأنهما ليستا

عينيك .

سألها : عينا من ؟

قالت : عينا رجل اخر .
سألها : وايهما تفضلين : انا ام الرجل الاخر ؟
قالت : أنت .

ضحك وضحكت . وقال :

— اتشربين شيئا ؟

قالت :

— لا .

قال :

— اأأكلين شيئا ؟

قالت :

— لا .

وضحكت مرة اخرى بغير سبب ، وحين سمعت صوت
ضحكتها بأذنيها تساءلت بينها وبين نفسها أأكون هذه
اللحظة هي السعادة ، وهل السعادة معناها أن يفيب العالم
بكل ما فيه ومن فيه ولا يبقى من الكون أجمع الا تلك
المساحة الصغيرة من الكنية التي تجمع جسديهما متجاورين
غير متلامسين بعد ، تفصلهما مسافة من الهواء لا تزيد
عن ملأ متر ؟

حاولت أن أمسك بلحظة السعادة ، لأعرف مذاقها
الحقيقي ، لكنها كانت رقيقة شفافة كطبقة رقيقة من الهواء ،
ما أن ترفع يدها وتلمسها حتى تتمزق . كانت يدها
بجوار يده فوق الكنية ، تفصلهما شعرة من الهواء ، لكن
أحدا منهما لم يحرك يده ، وكل منهما يخشى لو تحرك
أن تتمزق شعرة الهواء وتتمزق معها لحظة السعادة الرقيقة

كالفلاحة .

لكن كلا منهما كان يضيق بهذه اللحظة ، يتمجل نهايتها ،
فالسعادة احساس لا يحتمله الانسان الا لحظة واحدة ، تصبح
معلقة في الزمن كذرة هواء سابحة في الكون ، لا الارض
تجذبها ولا السماء تشدها ، معلقة ، وما اشق على الانسان
ان يصبح معلقا بين السماء والارض ، وما اشد رغبته في
ان تطلا قدماه سطح الارض او سطح اي جسد صلب يؤكد
وجوده الحقيقي بثقله المعهود .

وكقوة الارض حين تشد اليها الجسد فلا يبقى بينها
وبينه مسافة من هواء ، التفت ذراعاه حولها وذراعاهما حوله ،
وبتلك الرغبة العنيفة في الدويان في الكون ، وفقدان
الاحساس بالجسد وثقله والفناء الكامل والتلاشي في الجو
كذرات الهواء — كالموت اذا استطاع احد ان يموت ويصحو
ثم يصف لنا الموت ، ولكنه ايضا ليس كالموت تماما . فالموت
موت وربما فقد الانسان الاحساس حقيقة ، ولكن ان يفقد
الانسان الاحساس ولا يفقده ، وان يتلاشى جسده ويظل
موجودا ، وان يفنى العالم من حوله ويبقى حيا ، وان تصبح
السماء كالارض والارض كالسماء ، وكل الاشياء تتشابك
وتتداخل وتمتزج في شيء واحد او نقطة واحدة ، في منتصف
الرأس ، تنبض بحركة محسوسة كنبض القلب بل اشد .

بأذنيها كانت تسمع دقات قلبه ، والصوت حين يلامس
أذنيها يصبح كدقات قلبها ، وكل شيء فيه حين يلامس
حواسها يصبح كلمس جسدها ، وبصعوبة شديدة يمكنها
التعرف على جسدها من جسده ، الحرارة نفسها ، والرائحة ،

ولون البشرة ، وحركة الدم في العروق ، وكل شيء فيهما متشابه كأنهما جسد واحد . أرادت ان تهمس في اذنه بكلمة ما ، لكنها لم تجد الكلمة . اتقول له مثلا « احبك » ، ولكن الكلمة تبدو قبل ان تخرج من شفيتها قاصرة ، عاجزة عما تحسه حقيقة . فما معنى كلمة « احبك » ؟

الصمت يستطيع ان يعبر عن حقيقة احساسها ، لانها بهذا الصمت تقول شيئا خطيرا ، تقول ان الكلمات المتداولة بين البشر لم تعد تصلح ، وانها في حاجة الى كلمات اخرى ، كلمات تصنعها بنفسها ، ولغة جديدة لم تفسرها الكلمات القديمة المستخدمة . وهو ايضا كان صامتا ، مستغرقا كأنما يبحث عن سر لحظة الاتصال الابدية ، حين يكف الجسد عن الاحساس بالانفصال عن الكون ، ويصبح هو والكون شيئا واحدا ، وكيانا ضخما يملأ الساحة بين السماء والارض .

حين رفعت عينيها الى فوق رأت الجبل من وراء زجاج النافذة فأدركت ببطء انها تعود الى مكانها المحدد فوق الكنية ، وتحسست جسدها بيدها ، واكتشفت ان لها جسدا خاصا منفصلا عن جسده ، فانسعت عيناها بالدهشة ، لكنها رآته امامها فابتسمت وكانت تضحك وقالت له :

— اليس ذلك غريبا ؟

قال : ما هو الغريب ؟

قالت : ذلك الذي يحدث بيننا .

قال : وما الذي يحدث بيننا ؟

قالت : شيء غريب .
قال : ولماذا غريب ؟
قالت : بهذه السرعة ؟ وبغير كلمات ؟
قال : الحياة الحقيقية ليس فيها زمن ، اما الكلمات فقد
صنعها الناس ليبرروا حياتهم غير الحقيقية .
ضحكت وضحك هو ايضا .
قالت : ولكن كيف يمكننا التفاهم مع الناس ؟
قال : التفاهم مع الناس مستحيل يا بهية . الناس لا
يريدون انسانا حقيقيا . تعودوا تزييف كل شيء حتى انفسهم
وبمرور الزمن نسوا شكل انفسهم الحقيقية . وحين يرون
انسانا حقيقيا تفزعهم حقيقته الى حد الشروع في قتله
او قتله فعلا . ولذلك فلا بد لهذا الانسان ان يكون مطاردا
دائما ، او مقتولا او محكوما عليه ، او مسجوناً ، او معزولا
في مكان بعيد عن الناس .
قالت : في شقة في جبل المقطم .
قال : في شقة في جبل المقطم .
قالت : انا احبك يا سليم .
كانت عيناه السوداوان الزرقاوان شاخصتين نحو
السماء والجبل ، وظل صامتا لحظة طويلة كالمستغرق في
شيء بعيد . ارادت ان تسأله هل تحبني يا سليم ، وتسمع
صوته باذنيها يقول احبك يا بهية ، لكن السؤال بدا لها بلا
معنى . فما جدوى الاجابة عنه ؟ هي تحبه واذا كان هو
يحبها او لا يحبها فهذا لن يغير من حبها شيئا .
قالت : فيم تفكر يا سليم ؟

قال : ربما يكون لنا صبح بعد سعة شهور .
انتفضت في رجفة عنيفة ، واهتزت يدها الموضوععة على
مسند الكنية ، وادركت ان فوق معصمها عقربين يشيران
الى الساعة السابعة والنصف ، وبذلك الاحساس الراكد
الثقل تذكرت البيت والكلية واباهسا والمشرحة ، وكتب
التشريح ، وزميلاتها وزملاءها ، والدكتور علوي ، والترام ،
والشوارع ، والناس ، والعالم كله الذي انفصلت عنه وظنت
انها لن تعود .

تساءلت في دهشة : طفل ؟ لم تخطر افكرة ببالها قط ،
ولم تتصور من قبل ان الاطفال يخلقون بهذه السرعة ، وفي
مثل هذه الغيبوبة عن العالم ، والانفصال الكامل عن الارض .
ابمكن لذلك الجسد الذي ذاب في الكون وتلاشى ان يخلق
في لحظة التلاشي جسدا محددًا مربوطًا بالارض ، وان تلد
اللحظة اللاموجودة لحظة موجودة ومجسدة يمكن للاصابع
ان تلمسها وتمسك بها ؟ .

وبدأت تحس النبض الجديد في اعماقها ، كحياة
سحرية ولدت من العدم ، كالذي ينظر الى صخرة ثابتة في
الجبل وفجأة يراها تتحرك وتنبض بانتظام كنبض القلب .
وانفجرت شفتاها عن الدهشة نفسها ، والفرحة ، وصاحت
وهي تضع يدها على قلبها :

— انظر يا سليم .. انه يتحرك .

ورآها تنظر الى الجبل فتساءل بدهشة :

— ما الذي يتحرك ؟

قالت وهي تضحك : الجبل .

ضحك معها . لكنها كفت عن الضحك بعد لحظة ،
وادركت ان فرحتها ليست حقيقية . وان الجبل لا يتحرك ،
وانه ثابت ، جامد ، والارض والحائط والنافذة والكنبة وكل
شيء من حولها ثابت جامد ، الا هذان العقربان فوق معصمها
بحركتهما اليليدة البطيئة الرتيبة ، تذكرها ان الزمن يمضي
ولا يعود ، وان لحظات حياتها تسقط في العدم ، وتأتي من
العدم ، وان لا شيء يبقى سوى تلك الدبذبة العبثية لعقربين
من المعدن داخل علبة معدنية صغيرة بحجم القرش لها
غطاء زجاجي .

قالت بصوت حزين :

— سليم .

قال : نعم يا بهية .

قالت : لا اريد ان اعود الى البيت .

قال : لا تعودى .

قالت : ولكن ...

قال : ولكن ماذا ؟

قالت : ابي وامى والكلية والناس و ...

قال : وبهية شاهين .

احست بقطرات العرق في كفها وتحت ابطيتها ، وبشرتها
اصبحت شاحبة كبشرة بهية شاهين ، وعيناها اقل سوادا ،
وانفها اقل ارتفاعا ، وحاولت ان ترفع راسها وتجعل عينيها
سوداوين كما كانتا وانفها مرتفعا حادا يشق الكون
نصفين تسير بينهما الى الامام بغير تردد ، ولا خوف ،
وتصل الى النهاية ، نهاية النهاية . لكن بهية شاهين كانت قد

عادت اليها . كيف عادت ؟ لم تعرف . وفجأة وبغير ان تدري
نهضت ، وامسكت حقيبتها الجلدية المنتفخة وسارت نحو
الباب .

حين احتواها سريرها في تلك الليلة ظنت ان الذي حدث لم يكن الا حلما . وانه اذا لم يكن حلما فلا بد انه حادث طاريء اعترض حياتها العادية بغير ارادتها كحوادث القضاء والقدر ، وانه عادت بقدرة قادر الى مكانها المعهود في سريرها ، وجسدها صحيح بكامل اجزائه وحدوده الخارجية المألوفة .

ولكن بعقل اخر شيطاني كانت تدرك ان هذا الحادث الطاريء هو الشيء الوحيد الحقيقي في حياتها . انه ليس طارئا ، وليس حلما ، وليس قضاء وقدر ، وليس صدفة ، ولكنه الشيء الوحيد الذي فعلته بارادتها ، الشيء الوحيد الذي ارادت ان تفعله .

حياتها كلها ليست من فعلها ، وليست بارادتها . فاما هي التي ولدتها ، وابوها هو الذي ادخلها كلية الطب ، عمته المريضة بالصدر تريد ان تتخصص في الامراض الصدرية ، خالها يريد ان تكون طبيبة ناجحة ينهال عليها مال المرضى وتتزوج ابنه خريج التجارة ، فتربح فلوسها من تجارته ، وينجبان اطفالا يرثون ثروتهما ويحملون اسمه واسم ابيه وجده .

كل واحد منهم كان يقول لها ماذا يريد . لكن احدا منهم لم يسألها ماذا تريد . والحقيقة انها لم تكن تريد شيئا مما يريدونه هم . لم تكن تريد ان تكون طبيبة

وبالذات طبية امراض صدرية . كانت ترى طواير المرضى بالدرن الرئوي كالهياكل البشرية ، واطباء الامراض الصدرية اجسادهم مهتلة سميئة مترهلة . ولم تكن تحب عمها ، ولا ابنه خريج التجارة . كان شابا وسيما في نظر الاسرة كلها ، فهو طويل معشوق ، ابيض البشرة ، متورد الخدين ، عيناه تلمعان بالصحة والسعادة ، وملامحه بريئة براءة الاطفال ، وكأنه لا زال يرضع لبن امه ، ويتسم للجميع ابتساما سعيدة .

كانت تكره ابتسامته وسعادته ، وتقابلها بتكشيرة وشفتاها مزمومتان في غضب ، لكنه لم يكن يغضب ويظن بطريقه بلهاء ، او بفرور الرجال الانبياء ، انها تخفي اعجابها به تحت هذه التكشيرة ، ويقول لها بصوته المسطح : « انا افهم البنات . البنت تقول لا لكن قلبها يقول ايوه » .
لو كانت تملك ارادتها لبصقت في وجهه ، لكنها لم تكن تفعل اي شيء بارادتها ، وحينما ترى اباها يتسم له يتسم هي الاخرى وتقول : « من قال لك انني بنت » .
كانوا قد تهودوا ان يسمعوا منها هذا السؤال . لم يكن يغضبهم ، بل بالعكس كان ابوها يفتبط بعض الشيء ، كأنما يفخر بشعور خفي ان ابنته ليست بنتا ، او يتمنى في قرار نفسه الا تكون بنتا . كانت تعرف ان اباها صادق في غبطته ، وانه كان يريد لها ذكرا . لكن امها ارادت شيئا اخر وولدتها انثى ، او لعلها لم تكن امها ، وانما هي الصدفة المحضة التي جعلتها انثى .
كلمة انثى كانت حين تصل الى سمعها ترن في اذنيها

كالسبة ، او كالعورة العارية . كاول عورة رأتها في حياتها . كانت تخجل حين تخلع ملابسها في الحمام ، ولا تستطيع النظر الى جسدها العاري في المراة ، وحين تقترب اصابعها من عورتها وهي تستحم تبعتها بسرعة كمن مست يده منطقة مكهربة او محرمة . يد امها حين ضربتها وهي طفلة لا زالت على يدها . اثار اصابعها الكبيرة محفورة في ذاكرتها ، ثابتة فوق الجلد كالوشم ، وصوتها لا زال في اذنيها يردد : « تحرمي .. قولي حرمت » . ولم تنطق كلمة حرمت ، ولم تحرم ، فما الذي يمكن ان يكون في تلك المنطقة المحرمة ؟ وبأصابع مرتجفة كانت تفحص جسمها ، تحس بطريقة ما ان شيئا خطيرا يكمن في تلك المنطقة المحرمة ، لا تستطيع ان تلمسه ، ولا تستطيع ان تراه بعينيها ، لكنه موجود . تحسه عن يقين حين تحرك ساقها ، وترتجش اصابع امها حين تقترب منه وهي تفصل لها جسمها . شيء لا بد خطير ومخيف . لكنها تحمله في جسدها ، كجزء منها ، لا يفارقها . احيانا تنساه وتظن انه خرافة من الخرافات التي ملأت رأسها وهي طفلة ، واحيانا اخرى يصبح حقيقة مؤكدة وعارية ، كالسلك الكهربائي ما ان تلمسه حتى ينتفض جسمها انتفاضة قوية .

بهية .. دن صوت ابيها في اذنيها كطلقة الرصاص.
كصوت الحقيقة الوحيد ، ادركت معه انها بهية شاهين
طالبة الطب المجدة ، حسنة السير والسلوك ، العذراء
الطاهرة ، التي لم يمسها بشر ، والتي خلقت بغير اعضاء
جنسية .

شدت الفطاء فوق راسها وتظاهرت بالنوم ، لكنها
سمعت وقع قدمي ابيها في حجرتها تقترب من سريرها،
واصابه الكبيرة ترفع الفطاء عن راسها ، وعيناه تحمقان
في عينيها ، ويكتشف مصعوقا انها ليست بهية شاهين،
وليست ابنته ، وليست مهذبة ولا مطيعة ولا عذراء ، وانها
خلقت باعضاء جنسية ، واضحة ومرئية ، مرئية من تحت
الفطاء ، ومن تحت الملابس ، ليست مرئية فحسب ، ولكنها
متحركة ايضا ، كحركة الحياة ، نابضة كنبض القلب ، اذاحت
في حركتها الحاجز الذي كان امامها ، ومزقت الغشاء الذي
كان يفصل بينها وبين الحياة ، غشاء زقيق غير محسوس
وغير مرئي ، كلوح من الزجاج يفصلها عن جسدها ، ويقف
بينها وبين حقيقتها ، شفاف كالزجاج ترى من خلاله
نفسها ولكنها تعجز عن لمسها او الاحساس بها . كالزجاج
تماما معرض للكسر عند اي حركة ، واي قفزة .

كانت امها تشهق حين تراها تقفز من فوق السلم
القفزة العالية ، وتسمع قلبها يدب في صدرها ، وتتقلص

عضلات ساقها ، وتضم فخذيها بقوة ، وتسير نحو امها
بمشية البنات المألوفة ، ساقاها ملتصقتان ، لا تكاد الساق
تنفصل عن الساق ، وفي اللحظة التي تنفصلان فيها يخيل
اليها ان شيئاً من بينهما سيسقط ، شيئاً على شكل
الزجاج المكسور .

وحين يختفي امها داخل المطبخ تعود الى القفز . لا
يكفيها القفز من فوق السلم ، فتقف على حافة الشرفة (كان
بيتهم في الدور الاول) وتقفز في الهواء وتصرخ من الفرح
حين تحس جسمها طائرا في الهواء يغير ثقل ، خفيفا ككرة
هواء ، والارض لم تعد تشدها اليها ، وقد تخلصت الى الابد
من قبضتها الحديدية . لكنها ليست الا لحظة خاطفة ،
وصرخة فرح واحدة ، ثم تشدها الارض اليها بقوتها البجنونة
وتهبط بسرعة كنجم يهوي ، ويرتطم جسدها بالارض كقطعة
حجر .

كانت تنهض ، وتنفض التراب عن ملابسها ، وتتفقد
ذراعيها وساقها . كل شيء بقي مكانه ، وعظامها كما هي
لم تنكسر . وتترك بالحس خفي لكنه يقيني ان امها تخذعها ،
وان شيئاً لا ينكسر في جسدها ، وتقفز وهي تمشي ، وتحرك
ساقها بحرية ، وتفصل بينهما بقوة ، وتترك عن يقين ان
لا شيء زجاجيا بينهما ، وتصعد فوق الشرفة وتقفز مرة
ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وعشرين ، وفي كل قفزة يزداد
يقينها بان شيئاً لا ينكسر فيها ، وان عضلاتها قوية ،
وعظامها متينة ، وتضرب الهواء بركبتيهما في كبرياء كما يفعل
اخوها حين يمشي ، وتشد قامتها ، وترفع رأسها ، وتصوب

الى الحياة عينيها السوداوين مفتوحتين وحادتين ، لا يرمش لها جفن . وبزهو غريب تحرك قدميها فوق الارض ، وحين تعف رفع قدما فوق اي كرسي او منضدة ، ترفعها بكل نفة فوق اي حافة عالية ، كما يفعل ابوها حين يقف في الصلاة ، وبالكبرياء نفسها .

وتضربها امها على ركبتيها لتخفض قدمها قائلة : « عيب يا بهية ، الا ترين كيف تقف اخواتك البنات ؟ » وتنظر الى اخواتها البنات وتري سيقانهن السميننة الملتصقة ، وعيونهن المتكسرة ، كعيني الجثة الراقدة فوق المنضدة ، والمشرط في اصابعهن يوتجف حين يقترب من الرحم ، او عضو الذكر . كانت تغضب من عيونهن المنكسرة ، وتترك عن يقين انها لا تنتمي الى هذا الجنس ، وان شيئا فيها لا ينكسر ، وعيناها حين ترفعهما ترتفعان ، وحين تثبتهما تثبتان ، وليست هناك من قوة فوق الارض تستطيع ان تجعل عينيها تنكسران .

في الصباح التالي ذهبت الى الكلية ككل يوم . ودخلت المشرحة ككل يوم . لكن ابدا لم يكن دخولها ككل يوم ، ولم تكن قدميها هما قدميها ، ولم تكن يديها التي تمسك بالحقيبة هي يديها ، ولم تكن عيناها اللتان تنظر بهما الى الاشياء هما عيناها . من يراها يظن انها هي نفسها التي كانت هنا بالامس واول امس ، واول اول امس . لكن ابدا لم تكن هي بالتأكيد . كانت واحدة اخرى مختلفة ، والاشياء أصبحت امام عينيها مختلفة . احجامها اصغر مما كانت ، والوانها

اخف مما كانت ، وحركتها ابطأ مما كانت . اجسام الطلبة
اصبحت اصغر حجما ، وسيقان الطالبات اكثر بطئا .
كالزواحف يسرن فوق الارض ، لا تكاد الساق تنفصل عن
الساق ، واذا انفصلت عادت والتصقت بسرعة ، بقوة تضم
الفتاة فخذيتها كان شيئا ثمينا سيسقط من بينهما في اللحظة
التي ينفصلان فيها ، والحقيبة الجلدية المنتفخة بكتب
التشريح فوق صدرها ، تخفي تحتها شيئا ثميناً عن عيون
الطلبة وكيماهم المديبة . والطالبة منهن لا تستطيع ان
تسير منفردة ، وانما يسرن دائما على شكل جماعات ،
كاسراب البط . فاذا ما وجدت الواحدة منهن نفسها منفردة
في فناء الكلية او في المدج اسرعت الخطى تطرقع بكعبها
العالي لتلحق بزميلاتها وتخبيء جسدها بين اجسادهن .

لمحت الدكتور علوي يمر بين المناضد ، فخرجت من
الباب الخلفي للمشرحة . سارت في الفناء الواسع تتلفت
حولها كأنما تبحث عن احد . دخلت المعرض ودارت حول
اللوحات تتأمل خطوطها ، وعيناها السوداوان تبحثان في
العيون عن العينين السوداوين الزرقاوين والوجه النحيل
بعلامحه المرهقة المحددة . خرجت وسارت في الفناء بخطوات
بطيئة ، تتفحص وجوه الطلبة . وجوه كلها متشابهة ،
وحركاتهم متشابهة ، واصواتهم متشابهة ، وعيونهم حين تنظر
اليها لا تراها ، وتفرق في البحر دون ان يراها احد ، ودون
ان يميزها احد ، ووجهها يصبح كوجه زميلاتها لا فرق بين
بهية او علية او زكية او ايفون .

جرت بغير وعي في الشارع . وقع قدميها في اذنها

تعرفه ، والشارع ليس افقيا ككل الشوارع ، ولكنه يرتفع الى اعلى ، وجسدها يرتفع الى اعلى وهي تلهث ، وعيناها مشدودتان الى ذلك البيت الرمادي بلون السحب، مشدودتان باسلاك رفيعة كخيوط حريرية غير مرئية، مشدودتان بكل قدرتها على الحركة ، بحركة الدم في شرايينها ، بحرارة الدم وسخونته كانت تصعد ، بقوة الانجذاب نحو مصيرها ايا كان هذا المصير ، ايا كان ، وان كان هو الموت والفناء الكامل .

باصابع مرتجفة وضعت المفتاح في الباب، ودخلت ، وظلت واقفة في الصالة الخالية ، دقائق قلبها في اذنيها وانفاسها تتلاحق ، وصدرها يعلو ويهبط . نادى بصوت خافت : سليم . لكن البيت كان خاليا . دهشت الدهشة نفسها التي تحدث في الاحلام ، حين تتلاشى الاشياء التي تمسك بها في لحظة ، ويختفي الجسد الذي نحوطه بذراعينا في غمضة عين ، وحين نفتح عيوننا لا نرى ني الظلام الا الحائط ومن تحتنا السرير .

تحسست بيدها الشيء الذي تحتها ، فوجدت انها الكنبه التي جلست عليها بالامس . مدت ذراعها في الظلام فاصطدم بالحائط الصلب البارد . اغمضت عينيها مرة اخرى وظننت انها تحلم . لكنها لم تكن تحلم ، وعن يقين ادركت ان سليم غير موجود ، وانها وحدها في بيته الخالي ، جالسة فوق الكنبه ويقظة . حاولت ان تتأكد من يقظتها اليقينية ولكنها عجزت . فليست هناك وسيلة للتأكد سوى ان تلمس جسدها . ولكنها تفعل ذلك في

الاحلام ايضا حين تتشكك في نومها . . وهذا العجز
يرعبها ، فهي غير قادرة بحال من الاحوال على التأكد من
شيء في حياتها . ان محاولة التأكد لا تفعل شيئاً سوى
ان تزيد شكوكها .

حين فتحت عينيها في الصباح احست ان الذي تحتها
ليس ملمس سريرها المألوف ، ورات النافذة الزجاجية ومن
خلالها الجبل فانتفضت واقفة . اول ليلة تغيبها عن بيتها ،
واول ليلة ترقد في مكان غير سريرها . تصورت اباها يزار
كالاسد الغاضب وقد قلب الدنيا بحثاً وتنقيباً ، وامها
واخواتها وعمها واعمامها وعماتها وافراد الاسرة جميعاً
انتشروا في الارض كالجراد ، يبحثون عنها ويفتشون .
سارت الى المرأة بخطوات ثقيلة . من كان يراها في
ذلك الصباح يدرك انها نامت بملابس الخروج ، وان بياض
عينيها تشوبه حمرة خفيفة ، كتلك الحمرة التي تعقب
البكاء ، او السهر الطويل . ولم يكن منظرها هذا عادياً .
كانت فتاة مثالية ، ملابسها دائماً مكوية ، بياض عينيها
ابيض صاف ينم عن فتاة مهيبة مهذبة ، تنام الليل في
سريرها ، لا تعرف السهر ، ولا تعرف الشجن ، ولم تبك في
حياتها مرة واحدة .

لم تعرف الى اين تذهب ذلك الصباح . لكن قدميها
حملتاها الى الكلية ككل يوم . ورات الفناء مزدحماً بالطلبة ،
يموج بحركة غير عادية . وشقت الزحام متجهة الى المشرحة ،
لكن طالبا اعترض طريقها قائلاً :

« اليوم اضراب . لا محاضرات ولا مشرحة . »

ورات زميلاتنا يقبلن نحوها بحقائبهن الجلدية المنتفخة:
وسيقانهن المتصقة .
وقالت واحدة :
- فلنسرع الى بيوتنا قبل توقف المواصلات .
وسالت واحدة :
- وهل ستتوقف المواصلات ؟
وردت اخرى :
- يقولون ان عمال الترام والاتوبيس سيشترون في
الاضراب .
وسالت زميلة :
- وما سبب الاضراب ؟
وضربتها واحدة على ظهرها :
- يا خيبتك القوية ! الا تعيشين على ظهر الدنيا ؟
وقالت واحدة :
- انهم عيال وبعد قليل ينفض المولد ويجري كل منهم
الى مذاكرته .
وردت واحدة بسخرية :
- طلبة الطب لا يهمهم الا المذاكرة والصم ، اما طلبة
الحقوق والاداب ، هناك الاضراب الحقيقي .
وضحكت واحدة :
- فلنذهب الى هناك .
وشدتها زميلتها ناحية الترام :
- فلنذهب الى البيت . الامتحان بعد شهر واحد .
وتجمعن متكئات ، متلاصقات ، وسرن نحو الترام

برؤوسهن المطرقة الى الارض ، وعيونهن المنكسرة ، وسيقانهن المتلاصقة في تلك الخطوات الدودية الزاحفة .

وبقيت بهية واقفة وحدها ، ترمق الطلبة المتجمهرين من بعيد ، تحاول ان تلتقط من بين الوجوه الوجه غير العادي ، والعينين السوداوين الزرقاوين القادرتين على رويتها والتقاط وجهها من بين الوجوه . كانت واقفة ، تسند ظهرها الى الحائط ، وتتدلى من يدها الحقيبة الجلدية المنتفخة بكتب التشريح ، وعيناها السوداوان مرفوعتان الى اعلى تبحثان ، وانفها المرتفع الحاد يشق الكون نصفين ، وشفتاها مزومتان في غضب . لم تكن تحب طلبة الطب وبالذات حين يتجمعون في اعداد كبيرة . صورتهم وهم يتدافعون داخل المدرج لا زالت في رأسها ، بنظاراتهم السمكية ، وظهورهم المحنية ، وكيعانهم المدببة ، وعيونهم المشدودة النهمة لكل شيء له طراوة اللحم .

وفجأة اهتز الكون اهتزازة عنيفة . كصوت زلزال ارتجت له السماء والارض . وادركت بعد لحظة انه ليس صوت زلزال . ولكنه صوت بشري . آلاف الحناجر البشرية تنطق بصوت واحد في لحظة واحدة ، كصوت السماء حين ترعد ، كملايين الاصوات التي تصنع صوتا واحدا ضخما يملأ الكون ، ولا يدخل من الاذنين فحسب ولكنه يخترق مسام الجلد ويفزو جميع فتحات الجسد ، ويصبح كالغاز ينتشر في لحظة وبسري كالدّم في كل خلايا الجسم .

مضت دقائق قبل ان يالف جسدها الارثجاجة ، ويالف معها الصوت . لأول مرة في حياتها تسمع هتافا ينطلق

من الاف الحناجر في نفس واحد طويل عريض ، بطول
السماء وعرضها ، قوي كالريح العاتية تقتلع من امامها البيوت
والشجر . ولم تكن اذناها من ضخامة الصوت قادرتين
على تبين الكلمات . ثم رنت في اذنيها كلمة « مصر » .
لم تكن هي مصر التي كانت تسمعها من فم ابيها او امها
او احد المدرسين او المدرسات او احد زملاء او الزملاء
او الزميلات ، ولكنها « مصر » بذلك الصوت القوي الضخم ،
الذي يملأ الكون ويرج السماء والارض . وسرت فوق جسدها
قشعريرة ، واحست حركة الشعر فوق جلدها وهو ينتصب ،
وحركة تحت جفنيها دافئة ناعمة كحركة الدموع حين
تتجمع ، وصور قديمة من طفولتها بدأت تتابع امام عينيها
مهتزة كأنما من وراء ماء متحرك ، صدر امها الدافئ تحت
وجهها ورائحة اللبن في انفها ، ورائحة التراب واشجار
التين في قريتهم ، ويد ابيها الكبيرة تمسك يدها وهي
تجتاز الشارع ، ووجه عمته الطويل الطويل النحيل وهي
تسعل وتبصق الدم ، وعيون اخوتها الصغار المغمضة وهم
نائمون متلاصقون وافواههم مفتوحة يريلون فوق الوسادة ،
وعيون الاطفال الجائعة من حول التربة ، وطواير المرضى
في فناء المستشفى ، ونحيب النسوة بملابسهن السوداء
المتربة مندفعات وراء الجثة الخارجة من المشرحة .
ابتلعت الدموع وظلت واقفة . كانت القشعريرة لا
تزال فوق جسدها ، والصوت الضخم لا زال يتردد . ومرت
المظاهرة امامها . ورات وجوها غير التي كانت تراها في
المشرحة واجساما غير الاجسام التي كانت تندفع داخل

المدرج . فالملامح أصبحت بارزة حادة كالسيف والبشرة
محتقنة بالدم ، والعيون مرفوعة الى اعلى ، والظهور مشدودة
بغير انحناء ، والسيقان مشدودة مستقيمة عضلاتها قوية ،
والاقدام تدب على الارض وتهز السماء وتهز الشجر .
ووجدت نفسها بينهم كقطعة منهم - كجزء من جسد
ضخم ، حرارته من حرارتها ، وملامحه تشبه ملامحها ،
وبشرتها محتقنة بالدم ، وانفها حاد يشق الكون ، وعيناها
شاخصتان الى الامام ، ورأسها مرفوع ، وظهرها مشدود ،
وساقاها عضلاتهما قوية ، وقدمها تدب على الارض ، وتهز
الارض ، وصوتها ينطلق وحده من حنجرتها قويا ضخما يملأ
الكون ، وبكل ما تملك من قوة تهتف : « الحرية لك
يا مصر ! » .

احساس غريب بالدوبان في الكون الضخم ، في الجسد
اللانهاثي الممتد ، في ان يصبح الانسان جزءا من كل ، ويدوب
في كل ما حوله كقطرة ماء في بحر ، وذرة هباء في الجو .
احساس غريب ، له طعم للذيد في الفم ، وسعادة طافية
ينتشي لها الجسد ، كالنشوة التي احست بها بالامس ، في
ذلك المكان البعيد في حضن الجبل ، كنشوتها وهي طفلة حين
كانت ترى الاله الخرافي يضغط على الشيء ثم يفتح يده
فاذا هي فارغة ، وضحكها الطفولية حين كانت امها تضغط
عليها بكل قوتها ويكاد جسدهما يصبحان واحدا .

رغبة كامنة في جسدها ، قديمة منذ الطفولة ، منذ ان
اصبح لها جسد خاص منفصل عن الكون . رغبة ملحة في
ان يعود جسدها الى الكون ، ان يدوب الى اخر ذرة ، ان

تتحرر وتصبح بلا جسد ، وبلا ثقل له وزن ، كالروح الخفيفة
الحرّة المحلّقة في أي مكان وأي زمان بغير قيود تشدها
إلى الأرض .

رغبة في حرية طليغة لا محدودة ، لا يحصل عليها
الإنسان إلا في اللحظة التي يقرر فيها الخلاص ، ويمزق
تلك الشعرة التي تفصل الحياة عن الموت ، لا يهرب الموت،
وحين يكسر الإنسان رهبة الموت يصبح قادراً على أي شيء
في الحياة ، وإن كان الموت ذاته .

واحست في تلك اللحظة أنها قادرة على اختراق
الحديد بجسدها ، وتلقي الرصاص في صدرها ، والخنجر
المسمومة وغير المسمومة، وإن أي قوة في العالم لا تستطيع
أن تجعل جسدها يسقط ، أو يباقيها تتوقفان عن الحركة
إلى الأمام ، أو صوتها يكف عن الانطلاق متنادياً بالحرية . من
ينظر إلى وجهها في تلك اللحظة يرقي سواد عينيها
القرار الرهيب إن لا عودة إلى الخلف . أن لا قوة في العالم
تحول بينها وبين حريتها .

وكانما أصبحت بعد هذا القرار أقل توقراً ، وأكثر
ارتخاءً ، ولم تعد عضلاتها مشدودة ، وتركت جسدها ذالماً
في الكون ، متحركاً معه ، منسجماً كنغم في لحن ، وخطواتها
كإيقاع راقص في رقصة جماعية ، وصوتها ليس هتافاً
وإنما غناءً ، والكون كله يغني معها :

« بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي » .

الصوت يخرج من صدرها كالأنفاس الساخنة ، وقلبها
تحت ضلوعها يلدق ، وأحشائها تنبض ، وأحزان قديمة

وهموم ثقيلة تفارق جسدها مع كل نفس ، وكل دقة ،
وعيناها من شدة الفرح تدمعان ، ودموعها تسيل فسوق
خديها ، وتدخل أنفها وفمها ، فتلتعقها بلسانها وهي تضحك
وتفني ، وغناؤها يتمزق بالبكاء والنشيج ولكنه لا ينقطع
ولا يتوقف :

« بلادي بلادي بلادي لك حبي و ... »

وكلمة حبي تنسلخ عن صدرها كقطعة حية من لحمها،
كحفنة ساخنة من دمها ، تضغط على الكلمة بكل قوتها ،
يكل عنفوان حياتها ، بكل رغبتها المكبوتة في الحب، والانطلاق
كالطائر الحر في السماء .

أهو الحب الذي جعلها قادرة على ادراك كل هذه
الاحاسيس ؟ وادركت عن يقين انه الحب . الحب الحقيقي
الذي يجعل الانسان قادرا على ان يحب كل شيء ، وكل
الناس ، ويستطيع ان يفتح ذراعيه ويحتضن الارض
والسماء والشجر ، وحين يفتح الانسان عينيه وينظر بين
ذراعيه يرى انه يحتضن جسدا واحدا محددًا ، يعرف
ملامحه وحدوده الخارجية عن ظهر قلب ، ويستطيع ان
يلتقطه من بين ملايين الاجساد السابحة في الكون، ويميزه،
يميزه بكيانه الخاص وعينه الخاصتين القادرتين على رؤيته
والتقاطه من بين البشر .

ان مثل هذه اللحظات تبدو كالحلم . كل اللحظات
السعيدة تبدو كالحلم . فقد افاقت على صوت طلقات
الرصاص . وادركت ان هذا الصوت هو الصوت الحقيقي
الذي بدأت تسمعه ، وبدأت تعود معه الى واقع حياتها ،

والى القيسود التي تربطها بالارض . وكلما دوت طلقات
الرصاص افاقت على الحقيقة ، ورات بعض الطلبة يسقطون
على الارض ، وبعضهم يتقدم الى الامام مواجهها الرصاص
بصدره ، وبعضهم يحتمي بجدران البيوت والدكاكين .
ظلت واقفة كالتمثال في مكانها ، شامخة بقامتها
الطويلة وعينيها السوداوين المرفوعتين الى اعلى . لو
انطلقت رصاصة في المساحة المحددة التي يشغلها جسدها
لسقطت على الفور ميتة . لكنها كانت تدرك انها لن تموت
بفسر ارادتها ، وهي لا تريد الموت بعد ، ولكنها تريد ان
تبكي ، وان الحزن هو الحقيقة الوحيدة في حياتها ، وانها
حين كانت تضحك لم تكن تضحك ، وحين كانت سعيدة
كانت تدرك في اعماقها البعيدة ان هذه السعادة ليست
حقيقية ، وان شيئا ما يهددها ، يهدد حياتها ، ارادة
اخرى تتربص بها ، في كل لحظة ، وفي كل ركن ، تنتهز
الفرص لتنقض عليها ، ولا احد ينقذها ، لا ابوها ولا امها
ولا اخوتها ولا احد على الاطلاق .

وفجأة ، وكأنما انشقت الارض عنه ، رأت وجه سليم .
كان يشني فوق الارض ويحمل جسدا تنزف منه الدماء .
وتلاشت الصور امام عينيها ، ولم يبق الا ذلك الوجه
بخطوط ملامحه المميزة وهو يجتاز الميدان ببطء ومن فوقه
جسد اخر ، رأسه مائل ، والدم الاحمر يفرق القميص
الابيض ، ويسيل خلفهما رأسا فوق الاسفلت شريطا
طويلا احمر .

كالحالة ، بين مصدقة وغير مصدقة ، كانت تجلس في
الحجرة المجاورة لحجرة العمليات في مستشفى قصر
العينى القديم . احداث كثيرة حدثت في وقت قصير جدا
الى حد عدم التصديق ، لكن عيني سليم السوداوين
الزرقاوين امامها تؤكدان وجودها ويقظتها ، وحين يغيب في
الحجرة المجاورة تفقد الاشياء من حولها حقيقتها ووجودها
وحين يقبل مرة اخرى وتلتقي عيونهما يسري في جسدها
ذلك الاحساس العجيب بحقيقة الاشياء ، وحقيقة وجودها ،
وتدرك ان هذه اللحظة هي عمرها الحقيقي ، وان الايام التي
مضت والسنون لم تكن الا حلما او وهما .

احست في قمها طعم الحياة ساخنا لاسعا وقد امتزج
برائحة الاثير النفاذة وصبغة اليود ، ورعشة محسوسة
تحت ضلوعها ، ورجفة يدها حين تمسك شيئا ، ورجفة
ساقها حين تقف او تمشي ، رجفة الحياة الحقيقية ، مزيج
من الخوف والاقدام ، الاحساس بالخطر والامان . ، فقدان
الاحساس بالزمان والمكان واكتساب قدرة عجيبة على
الاحساس بالزمان والمكان . مزيج غريب من احساس
متناقضة ذائبة كلها في وعاء واحد وفي انسجام كامل
كالوان الطيف .

خيل اليها ان العالم كله يتحرك من اجل احداث هذا
المزيج العجيب في جسدها ، وان الاضراب والمظاهرة

والهتاف والنشيد وطلقات الرصاص ، والاجسام التي
سقطت ، والدم الاحمر الذي سال فوق الارض ، والراس
النازف الذي ساعدت في حمله الى العربية ، وحجارة
العمليات ، ورائحة الاثير وصبغة اليود ، والاطباء بمعاطفهم
البيضاء ، والمرضات ببرانيظهن البيضاء ، كل ذلك حدث
من اجل احداث ذلك المزيج المتناقض في جسدها .

من ينظر في عينيها في تلك اللحظة يرّحزنا عميقا
دفيئا تعلوه سعادة غريبة طاغية ، تبدو كالبريق الخاطف فوق
سواد عينيها ، كالحركة السريعة ، كلفحة هواء ساخن ،
كانفاس طفل ينهث بالجري وراء كرة ، كرفرفة جناح
عصفور تحت اشعة الشمس . وسمعت صوت احد الاطباء
يقول :

— مجدي مات .

صوته نفذ في اذنها كطلقة رصاص جديدة مزقت
الشعرة بين اليقظة والحلم ، وبين الحياة والموت ، وادركت
بوضوح ان سبعة من الطلبة ماتوا ، وان عددا اكبر اصيب
بجراح ، وان عددا اخر حمل في العربات الى السجن ، وان
مصر ليست حرة ، والقيود لا زالت باقية ، وعيون الاطفال
لا زالت بجوار البركة جائعة ، وطوابير المرضى لا زالت
واقفة في فناء المستشفى تبصق الدم ، والنسوة بملابسهن
السوداء لا زالن يبكين وينتحنن ، وابوها في الصلاة لا زال
قابعا في كرسيه الاسيوطي ، والشرطي على ناصية الشارع
لا زال من وراء الكشك الخشبي يتشمم رائحة الدم .
سقط رأسها فوق صدرها كأنما نامت ، ويبدو انها

نامت فعلا ، لانها افاقت على صوت سليم ، وصوت سليم
حين يناديها تبدو كل الاشياء كالحلم :
- بهية .

انتفضت من فوق الكرسي على صوت النداء ..
بهية .. ، من دون الاسماء كلها يتعرف على اسمها ، ومن
دون الوجوه كلها يتعرف على وجهها ، وبذلك الحركة الارادية
الوحيدة يتجه نحوها ، وصوته المميز في اذنها : بهية ، انت
متعبة ، وملابسك عليها دم . نظرت الى ملابسها ، ورات
بقع الدم تلتطخ صدرها واكمامها ، دم مجدي الذي تجمد في
شرايينه منذ دقائق . وقال الطبيب فوزي :

- وانت يا سليم قميصك كله دم . تعالوا معنا الى
بيت الاطباء ، وهناك يمكن ان نزيل البقع .

كان بيت الاطباء في القصر العيني الجديد ، فاجتازوا
الكوبري الصغير الذي يفصل المستشفى القديم عن المستشفى
الجديد . ومن بين قضبان الكوبري كان الماء يجري ، وقارب
صغير جلس فيه فتى وفتاة يجدفان ويضحكان ويلوحيان
لامرأة شقراء تقف في شرفة قصر من قصور جاردن سيتي ،
وعلى باب المستشفى كان هناك الحشد المألوف ، وعربات
الكارو تحمل البرتقال ، والوجوه الضامرة ، واجساد
كالهياكل ، ونساء يحملن اطفالا لهم وجوه عجائز ، وعجائز
يسيرن باجسام صغيرة كاجسام الاطفال ، ونساء لهن
ملامح رجال ، ورجال لهم ملامح نساء ، وعلى الاسفلت
بصاق دموي ، وبراز اطفال ، وكلاب جرباء جائعة تنبش
في القمامة المبعثرة هنا وهناك .

ودوى من خلفهم بوق سيارة حاد ، وراوا العربية
السوداء الطويلة داخلها اربعة وجوه سميكة وثمانى عيون
جاحظة . وهمس سليم :

— البوليس .

وتقدم نحوهم الرجل ذو الفم المدبب الممدود كفم
الفأر قائلا :

— تعالوا مسي .

ولم يتحرك احد منهم من مكانه فاحاط بهم ثلاثة رجال
وساروا امامهم الى عربة كبيرة كالصندوق ، جوانبها الاربعة
مغلقة ومظلمة من الداخل كالزنزانة المتحركة .

جاء مقعدها الى جوار شق صغير في جدار العربة ،
كشق المفتاح في الباب ، رأت من خلاله الشوارع المزدحمة
بالناس ، والعربات ، والترام . كانت الشمس قد بدأت
تقرب وانوار الشوارع والبيوت والدكاكين بدأت تنتشر ،
ومعها تنتشر تلك الحركة المصاحبة لقدم الليل وخروج
الناس للتنزه والسهر ، او للعمل في وردية الليل او لشراء
حاجياتهم . عالم اخر تنظر اليه من خلال ثقب صغير في
صندوق معلق ، كالعالم المسحور الذي كانت تراه وهي طفلة
من خلال الثقب في صندوق الدنيا ، او جراب الحاوي .

واصبحت حركة الشوارع والناس امامها حركة غريبة ،
منفصلة تماما عن العالم الذي اصبحت فيه ، والذي بدا لها
لا يعرف شيئا اسمه طعام او شراب او نوم او بيوت او
اباء او امهات ، او دكاكين او ناس تشتري ، او اطفال يولدون
او عجائز يمتن ، او شوارع يمشي فيها الناس ، او ترامات

تسير فوق قضبان . وبدأت لها حركة الناس وهم يسرون
حركة عبثية بلا معنى ، وخيل اليها ان هؤلاء الناس ميتون
او انهم يعيشون في عالم قاتر بغير حرارة وبغير نبض .
عالم الناس اصبح ميتا في نظرها ، والحياة كلها اصبحت
متجمعة متركزة في تلك العربة ، او ذلك الصندوق المغلق ،
او بالتحديد ذلك المقعد الذي يشغله الجسم النحيل ومن
فوقه الراس والملامح المحددة المرهقة المحملة بالهموم ،
والعينين العميقتين بقدرتهما العجيبة على الروية والنفاذ
الى حقيقة الاشياء .

توقفت العربة ، وانفتح باب الصندوق ، وجاء عدد
من الرجال ساروا من امامهم ومن خلفهم ، ودخلوا معهم
الى مبنى غريب ، ووجدت نفسها في حجرة ضيقة خالية ،
وانغلق الباب عليها وحدها . وظلت عيناها ثابتتين فوق
الباب الموصل لا تريان شيئا الا الباب . حاجز كبير مصمت
من الخشب الداكن السميك ، يحول بينها وبين سليم .
يقف بينها وبين حياتها ، يمنعها من الحركة ، يشدّها بعيدا
عن ارادتها ككراهي امها الكبيرتين حين كانتا تشدانها ،
وصوت ابها حين ينهرها ، وصوت الترام وهو يزحف فوق
القضبان ، وباب الكلية الحديدي ، والمشرحة بالمناضد
الرخامية ومن فوقها اشلاء الجثث وسيقان الطلبة المعوجة
وعيون الطالبات المنكسرة ، وعينا الدكتور علوي الزرقاوان
بنهما الخفي .

بقبضة يدها القوية تضرب الباب الخشبي ، ويقدمها اليمنى ، واليسرى ، تضرب الباب السميك المصمت ، بكل جسدها تضربه ، لكن جسدها يرتد عنه ويرتطم بالجدار ثم يرتد عن الجدار ويرتطم بالباب كالذي يصر ب رأسه ليكسر الحائط ، فيبقى الحائط وينكسر الرأس . لكن رأسها لا يتكسر . لا شيء فيها يتكسر ، وجسدها الطويل يظل محدودا فوق الأرض ، يشغل المساحة بين الجدار والباب ، ومن تحته تنساب خيوط رفيعة من الدماء ، من تحت أنفها وأذنيها ، ومن بين أصابع يديها وقدميها ، ويفتح الشرطي الباب ، أنفه يشمم رائحة الدم ، وعيناه تتلصصان ، تصوب اليهما عينيها السوداوين فيطرق الى الأرض بحركة مستسلمة ككل رجال الشرطة ، يقاومها بحركة أخرى متفطوسة وبشد عضلات ظهره وعنقه ، وتجحظ عيناه كالمشقوق ، والسوط يتدلى من بين أصابعه القليظة المشققة كاصابع الجلاد .

كل شيء من حولها يبدو مالوفا . كانه حدث من قبل مرة او مرتين ، والالام في جسدها احسته من قبل ، وتلك البقع الحمراء فوق الأرض ، بل هذا الشرطي راته ، والعينان ، والانف ، والسوط ، والجدار ، والبقع الحمراء ، والباب ، وكل شيء يتكرر ، وكأنما تستطيع ان تعرف ما الذي سيحدث في الغد ، والورقة البيضاء تخفيها تحت البرش ، كما كانت تخفيها عن عيني أبيها ، وحينما يختفي السجان تخرج

الورقة ، وتنظر في خطوطها المميزة ، تعرف خطوطها كما تعرف ملامحها ، وبذلك الحركة الإرادية اتقوية تحرك الفرشاة فوق الصفحة البيضاء ، وكل الأشياء تتخذ شكلا جديدا ، والوانا جديدة ، او بعبارة اخرى الوانها الحقيقية . وتصبح عينها قادرتين على اكتشاف ان ورق الاشجار ليس اخضر ، والسماء ليس لونها ازرق ، والجدار ليس رماديا ، بل انه ليس مصمتا ايضا ، بل هو شفاف كستارة من حرير ، جسدها يخترقه بسهولة ، وهي تشعر بقوة خارقة ، حقيقية وليست وهمية ، لها كثافة مادية ملموسة ، تحسها باصابعها متينة مرنة كالمطاط ، لا تنكسر وانما تنثنى فحسب تحت الضغط الشديد ، تدرك بها ان جسدها لا يمكن ان ينسحب من الحياة ، ويظل قلبها يدق بتلك الضربات العالية كالفهقات ، ويصبح للأشياء الوان زاهية ، والبقع الحمراء فوق الارض تصبح متوهجة وضاءة كقرص الشمس ، والنجوم تسطع بضوء قوي كضوء القمر ، واخضرار الشجر يصبح ازرق داكنا ، وكل ورقة لها خيوط ونسيج بارز كالاسنان المثروثة ، يحركها الهواء بذبذبة غير مرئية كحركة الزمن ، ويصبح الماضي كالحاضر والمستقبل ، والامس كاليوم كالفد ، يصبح الزمن بغير زمن ، وهذه حقيقة رائعة لا يكشفها الانسان الا في زنزانة السجن .

هذا الاكتشاف او هذا الادراك هو السبب الحقيقي وراء تلك النشوة العجيبة التي كانت تطل من عينيها السوداوين ، والتي كانت تجعل جسدها النازف يتراقص برشاقة نادرة ، يداعب اسراب البق النشطة فوق البرش .

وهي مقدرة خارقة للعادة ، لا يكتسبها الجسم الا حين يتخلص من وعيه الانساني المزيف ويصبح بوعيه الحقيقي . حين اطل الحارس براسه من الباب دهش . كانت بهية تفرد ذراعها وتتحسس باصبعها عروقها النافرة المنتفخة ، وحينما تحس دورة الدم في جسدها تضحك ، فالانسان منذ آلاف السنين يحاول عن طريق دورة الدم في جسده ان يعرف الكون ، وتنظر بهية الى الشرطي بعينيها السوداوين ، تترك عن يقين ان الكون يدور مع دورة الدم في جسدها ، وان هذا الدوران بالذات هو ما يفرع رجال الشرطة ، ويشل تفكيرهم ، خاصة اذا كان الدوران شديدا الى حد ان يبدو السطح املس ساكنا كسطح الارض ، مع ان لونه احمر وردي كلون الدم ، ويمشي ببطء اشبه بالكبرياء في العروق الزرقاء تحت الجلد .

سألها الشرطي بصوته الحاد الانثوي :

— انت بهية شاهين .

اجابت على الفور وهي لا تزال تضحك وعيناها

مرفوعتان الى اعلى بشموخهما العادي :

— لا .

حملق فيها الشرطي بعينين جاحظتين :

— اتكذبين ؟

وضحكت وهي تطرقع اصابع يديها فصفعها على وجهها ،

فانساب الخيط الرفيع الاحمر من فمها وانفها ، لكن عينيها

السوداوين ظلتا مرفوعتين الى اعلى ، وانفها له ارتفاع حادة

تشق الكون امامها نصفين ، وحين سارت الى جوار الشرطي

بدت ساقاها في البنطلون الاسود طويلتين ، عضلاتهما مشدودة ، وعظامهما مستقيمة ، تدب بكل قدم على حدة فوق الارض ، وتفصل بين ساقها بثقة . وحين وصلت الى الحجرة الفسيحة المزدحمة بالاجسام وقفت وقفتها المألوفة ، اتكأت بقدمها اليمنى فوق الارض ، ورفعت قدمها اليسرى عالية في الهواء ، ثم وضعتها فوق الحاجز الخشبي الذي بينها وبين ضابط يجلس من خلف مكتب صغير .

فتح الضابط دفتره كبرا بحجم المكتب ورن صوته في الحجرة مناديا :

— بهية شاهين .

ادركت انه يتنادي واحدة اخرى فلم ترد . لكنه نادى مرة ثانية بصوت عال :

— بهية شاهين .

وتلفتت حولها تبحث في الوجوه عن واحدة اسمها بهية شاهين . لم تتعرف على وجهها بين وجوه النساء الواقفات والجالسات فوق الارض . ورنت في الحجرة ضحكة انثوية ممطوطة تبعثها ضحكات كركرت مصحوبة بطرقات اللبان ومصمصات الشفاه ، ورائحة عرق ورائحة امنزجت برائحة عطر نفاذ كصبغة اليود ، ووجوه بعضها سمين مكتظ باللحم وبعضها ناكل ممصوص ، الجلد فوق العظم ، والكحل الاسود ساح من الحر حول العينين فاصبح كشنبر اسود لنظارة بيضاء ، والجسد السمين المترهل يترجرج تحست الفستان الحريري الضيق ، برجرجة البروزات والانبعاجات والاثداء والارداف ، والجسد الناكل كعود اللدة الجاف

بغير يدين ولا ردفين ، والاقدام الانثوية الصغيرة تطل من
الشباشب المفتوحة باظافرها الطويلة الحمراء وكعوبها
المشقة السوداء بالطين .

وقالت واحدة من الضامرات :

— اين بهية شاهين ؟

وردت واحدة من السمينات :

— انا اسمي بهية الشربتلي .

— اهلا وسهلا يا اختي .

— اهلا بك .

— متى يتوب علينا ربنا ؟

— ربنا راضي عنا كل الرضا .

— والنبي يا اختي .

— طبعا . نحن زين النساء .

— رددت الروح في جسدي يا اختي .

— لولانا لمات الازواج الشرفاء ، وانهارت البيوت

المحترمة .

— ولكنهم يتأفون من رائحتنا .

— لانها رائحتهم الحقيقية .

— ويضعوننا في السجن .

— لاننا نعرف شكل عوراتهم .

— ويخافون منا الى حد الموت .

— ويرغبوننا الى حد الموت .

ورنت الضحكات المطوطة وطرقعات الشباشب

واللبان ، وقاحت رائحة النتانة ذات العطر النفاذ ، وخبط

الضابط بيده فوق المكتب انكالح كمنضدة المطبخ وصاح
غاضبا :

— سكوت يا غجر ! اليس عندكم حياء ؟
وكركرت واحدة بضحكة طويلة :
— حياء ايه يا شاويش ؟ اصحاب الحياء ماتوا .
وغمز لها الرجل بحاجبه قائلا :
— صدقت والله .

ثم رمقها بعينين متوعدتين تلمعان بالشهوة .
انفجرت شفتا بهية عن ابتسامة سرعان ما تقلصت
حين رأت اباها امامها ، وكأنما انشقت الارض عنه . رمقها
ابوها بنظرة حادة متوعدة ، واجاب على اسئلة الضابط ،
ووقع بامضائه (على شكل شخيرة) على المحضر ، ودفع
غرامة عشرة جنيهات قبل ان يتسلم ابنته .

ركبت التاكسي ، وجلست ، عن يمينها جلس ابوها ،
وعن يسارها عمها . وانفلقت ابواب العربة وانطلقت بها ،
كالمقبوض عليها بسلطة اخرى تشبه سلطة البوليس ، وابوها
من ناحية وعمها من الناحية الاخرى كرجلسي الشرطة ،
ووجهاهما من الجانب جامدان صامتان ، وعيناها شاخصة
الى الامام ، لا يلتفتان ناحيتها ، تماما كشرطيين غريبين عنهما ،
يسوقانها الى المقصلة او الى الزنزانة .

اجتمع رجال العائلة الكبيرة ، وجلسوا حول المائدة
يلتهمون الفراخ المحشية . وبعد الفداء جلسوا في الصالة
يدخنون ، ويسلكون اسنانهم من اللحم باعواد الخلة وقد
ارتفع بطن الواحد منهم فوق فخذه كالمرأة الحامل ، وملات

اليناه السمينتان المترهلتان المقعد الاسيوطي الكبير . ويتجشأ
الواحد منهم بصوت عال ثم يتنحنع ويقول بصوت خشن رزين
(ليس هو صوته الحقيقي) :
- أنا رأيي ان نخرجها من الجامعة . الجامعة مفسدة
لاخلاق البنات .
ويرد الآخر :
انا رأيي ان نزوجها باسرع ما يمكن ، فالزواج هو
الحصن المنيع لاخلاق البنت .
ورد آخر : انا رأيي ان نفعل الاثنين معا . بعبارة اخرى
نخرجها ونزوجها ، والعريس موجود .

انها في قبضة القدر ، والاصابع التي تقبض عليها
حديديّة كالقضبان لا ترتخي والمسافة بين القضيب والقضيب
لا تكفي لان تخرج راسها . القدر هو ابوها . يملكها كما
يملك ملابسه الداخلية . يعلمها او لا يعلمها فهو الذي يدفع
مصاريف الكلية . يزوجها او لا يزوجها فهو الوكيل عنها
مع انها لم توكله .

المؤامرة اصبحت تحاك ضدها ، بتكتم وسرية ، تسمع
الهمس ، وترى النظرات في العيون ، وتدرك الخطر القريب
وتفكر في وسيلة للنجاة .

وفي منتصف الليل حين تسمع شخير ابيها تتسلل
من فراشها وترتدي ملابس الخروج ، وتجلس على حافة
السرير تفكر الى اين تذهب ، في مثل هذا الوقت ، الى اين
يمكن ان تذهب فتاة مثلها في الثامنة عشرة ؟ .

لم تكن تحس انها فتاة ، او انها في الثامنة عشرة .
هذه السن في ذلك الوقت كانت تسمى سن المراهقة .
والمراهقة كلمة مشبوهة مريبة ، ما ان ترن في الجو حتى
يرتعد الالباء والامهات برغبة جنسية مكبوتة ، يرققونها بكثيرة
حادّة ، ويلوحون لابنائهم وبناتهم باصابع مهددة فترمقهم
عيون الناس بنظرات الريبة ، اما الالباء والامهات فينساقون
وراء غرائزهم دون ان يرتاب فيهم احد .

كانت تدرك انهم لن يفسروا هروبها من البيت الا
تفسيرا جنسيا ، مع انها في ذلك الوقت لم تكن لها رغبة
جنسية (علاقتها بسليم كانت شيئا اخر) . منذ ذلك اليوم
الذي ضربتها امها على يدها (كانت في الثالثة من العمر) وهي
تشعر بانفسيان اذا ما رأت اعضاء ولد او بنت . وحين تلمح
اعضاءها في الحمام صدفة تبعد عينيها بسرعة . بمعنى اخر
نم تكن تدرك انها انثى ، وسليم في نظرها لم يكن ذكرا .
كانت ترى في عينيه صورة نفسها الحقيقية ، وحركتها اليه
تؤكد حريتها وارادتها ، وحين تكون معه تضع رغبتها في
الطعام ، وتضع شهوتها الجنسية ، وتصبح انسانا جديدا
بغير غرائز وبغير تلك الشهوات المعروفة ، وانما هي شهوة
جديدة عارمة بغير اسم . شهوة الى ان يكون الانسان نفسه
الحقيقية ، ان يدوس بارادته على الارادات الاخرى ، ويمزق
شهادة ميلاده ، ويغير اسمه ، ويغير اياه وامه ، ويضع
اصبعه في عيون كل الذين خدعوه وكذبوا عليه ، ولايستثنى
من ذلك عينييه فيخرقهما ويصنع لنفسه عينيين جديدتين .
كانت تعرف ان عينيها تكذبسان وتخفيان رغبتها
الجنسية . لكنها لم تكن تخفيها بارادتها . كانت تتقلص
وحدها رغم انفها ، وتحس بها وهي تنسحب منها ، كالروح
تنسحب وحدها من الجسد . وفي بعض اللحظات ، حين
كانت تحس حاجتها اليها ، وتحاول ان تستحضرها (كما
تستحضر الارواح) فلا تحضر ، وتظل بعيدة عنها ، كالروح
الهائمة محالقة فوق رأسها ، ولا تستقر ابدا في جسدها ،
لا زال صراخ اختها فوزية في اذنيها ، وبركة الدم من

تحتها حمراء قانية ، وفي كل يوم تنتظر دورها ، والبواب يفتح وتدخل ام محمد بالموسى الحادة لتقطع ذلك الشيء الصغير بين فخذيها . لكن ام محمد ماتت وانتقل ابوها الى القاهرة وظل الشيء الصغير في جسدها .

احيانا كانت تخاف منه ، وتظن انه شيء ضار وجد خطأ او نسي في جسدها . وتود لو صحت ام محمد من قبرها وجاءت بموساها ، لكن صورة اختها فوزية تتراءى امامها ، وهي تمشي الى دورة المياه تعرج وتتاوه ، وبعد ان التأم الجرح لم نعد تجري كما كانت ، وخطواتها اصبحت بطيئة ، وساقاها حين تمشي تظلان ملتصقتين لا تكاد الساق تنفصل عن الساق .

واصبحت تكره اليوم الذي تستحم فيه ، وحين تخلع ملابسها تصوب نحو اعضائها نظرة كراهية ، بل انها كرهت الله لانه هو الذي خلقها ، وكانت قد سمعت من ابيها مرة ان الله هو الذي خلق اجسامنا واعضاءنا . وذات يوم قالت لامها انها تكره الله فشهقت امها وضربتها على وجهها قائلة : كيف تقولين هذا ؟ .

وردت وهي تبكي : لانه يخلق اشياء سيئة .
فضربتها مرة اخرى وهي تقول : ان الله لا يخلق الا الاشياء الجميلة .

فقالت وهي تمسح دموعها : فمن اذن الذي خلق تلك الاعضاء السيئة ؟ !

وحملت امها في وجهها بعينين متسعيتين ولم ترد ، وسمعتها في تلك الليلة تهمس في اذن ابيها : هذه البنت

غير طبيعية !

لم تكن تعرف بعد ما هو الطبيعي ، وتصورت ان الرغبة الجنسية غير طبيعية ، فاصبحت تتقزز حين تلمح اعضاء الرجال بارزة من تحت سراويلهم ، وتشعر برغبة في القيء حين يدس الواحد منهم كوعه في صدرها وهي وافعة في الترام . كانت تكرههم ، وتكره سراويلهم ، واءضاءهم الفبيحة البارزة ، وعيونهم المدببة النهمة ، ورائحتهم التي يختلط فيها البصل بالتبغ ، وشواربهم الكثة التي تبدو فوق شفاههم كالحشرات السوداء الميتة .

كانت تعرف ان اباه رجل فاصبحت كراهيتها له مزدوجة ، وحين كان ينقطع شخيرته في الليل لحظة تتخيل انه مات ، ولم تكن تحب امها ايضا ، ولا النساء ولا اثوابهن المفتوحة عند الصدر ، تكشف عن نهدين منتفخين برغبة مكبوتة ، وعيونهن المكحلة كالجواري تتأجج بالشبق ، لكن سيقانهن السمينة الملتصقة وعيونهن المتكسرة تفضح برودهن الجنسي الى الابد .

ومع ذلك كانوا يسمونها مراهقة ، وحين كانت تقف في الشرفة لتستمع باشعة الشمس يتصور ابوها انها تطل على الجار الاصلع ، وحين تتأخر ، او تشرد ، او ترسم ، او تفكر ، او تستحم ، او تنظر في المراة ، فالسبب واحد ، وهو الرجل . وقد ادركت من بعد ان رؤوس الاءاء والامهات لا يشغلها الا الجنس ولهذا يتصورون ان ابناءهم وبناتهم على شاكلتهم .

في حفل عائلي كبير طرقت فيه الصاجات، وترجرجت
اجساد الراقصات ، وجحظت عيـون الرجال بالشهوة ،
وامتلأت البطون بالطعام والشراب ، باعوها لرجل من الرجال
مقابل ثلاثمائة جنيه . وسط الزهور والانوار كان وجهها يطل
على العالم شاحبا ، وامها تزهر بذلك الصوت الحاد الذي
يتقطع قرب النهاية كالنسيج المكتوم . وابوها يسير مختلا
بالبدلة الجديدة يتحسس من حين الى حين الجيب الداخلي ،
حيث ترقد المحفظة المنتفخة بالمهر ، والاطفال يجرون ويلعبون
لكن عيونهم ترمق العروس فيتحسسون اعضاءهم من تحت
ملابسهم في وجل وخوف ، والرجال يسراويلهم وسيقاتهم
المعوجة يروحون ويجيئون مختالين بذكورة مترهلة نهمة
كالعدة المريضة ، والنساء بفساتينهن اللامعة وميونهن المنحلة
من فوقها سحابة تخفي ذكرى زفاف اليم .

الفرستان الحريري الابيض ، ضيق عند الصدر يخنق
ثديها ، ويلتف عند الردفين وحول ساقيها عدة لفات وثنيات
كالكنف ، ويجرجر على الارض في ذيل طويل ، تتعثر فيه
قدمها المتارجحتان فوق كعب عال رفيع ، تسير نحو
« الكوشة » المحاطة بياقات الورد كقبر الجندي المجهول ،
ودقات الطبول في اذنيها بطيئة ثقيلة كدقات اللحن
الجنائزي ، ويدها الصغيرة الباردة في يد « العريس » الكبيرة ،
اصابعه القريبة حول اصابعها تلف كاصابع القدر ، وساقها
من تحت لفائف الكفن تتحركان ببطء كأنما تسير نحو كارثة
مجهولة ، وعيناها السوداوان مفتوحتان شاخصتان الى
الامام ، ثابتتان في الفضاء على لا شيء .

كالصفعة القوية الحادة سمعت الباب وهو يفلق ،
والاصوات كلها انقطعت ، والصور ، ووجدت نفسها تجلس
داخل عربة كعربات البوليس ، عن يمينها رجل (ابوها) وعن
يسارها رجل (العريس) ، وجهاهما من الجانب مشدودان ،
وعضلاتهما مشدودة ، وعيناها شاخصة الى الامام تراقبها
خلسة كعيون رجال البوليس .

وعند باب الشقة الجديدة تسلم العريس الوديعة من
الاب ، وانتقلت ملكية بهية شاهين من محمد شاهين الى
محمد ياسين . لكن احدا من الرجلين لم يكن يدرك بعد انها
ليست بهية شاهين وبالتالي لا يمكن ان تصبح بهية ياسين .
هي الوحيدة التي كانت تعرف ، وحين انغلق الباب
عليهما رفعت عينيها السوداوين المقتحمتين ورات الشارب
الاسود تعلوه نقطة بيضاء بلون المخاط ، وشعر الصدر الكث
الاسود تتخلله حبات عرق ، وغابة الشعر اسفل بطنه ، وتلك
القفزة فوق السرير كقفزة قرد ، ضحكت بصوت عال ،
فاتسعت عيناه في دهشة . سارت بخطوات بطيئة نحو
الدولاب وفتحته فاندشت هي الاخرى . قمصان النوم
العارية من الصدر والظهر والبطن ، والملابس الداخلية ذات
الكرائيش والمخرمات والدنتلا ، وزجاجات عطر ، وعلب
مساحيق بيضاء ، وخضراء ، وحمراء ، وفرش للرموش ،
وشباشب منبعجة الى اعلى ومن فوقها وردة حمراء ، وفوط
حمام ، وصابون تواليت ، وبودرة ازالة الشعر ، ومعجون
ازالة الرائحة ، وزيت دهان وتدليك .
ادوات المرأة في حياتها الزوجية . كلها ادوات جنسية .

تنتقل الفتاة من بيت ابيها الى بيت زوجها فتتحول بقدرة قادر من مخلوق لا جنسي (بغير اعضاء جنسية) الى مخلوق جنسي ينام ويصحو ويأكل ويشرب الجنس . يظنون ببلاهة غريبة ان الاعضاء التي بترت بالموسى يمكن ان تعود ، او ان الرغبة التي ذبحت وماتت وشبعت موتا يمكن ان تصحو .
ابتسم لنفسه في زهو ، وادرك انه تمنع الفتاة العذراء الجاهلة بالرجل . استمد من جهلها ثقته بنفسه فسار امامها عاريا يتبختر مستعرضا رجولته . ضحكت مرة اخرى ، فاشتعل الدم في عروقه بعدوانية الذكر ، وانقض عليها كواوحش المفترس . رفسته بقدمها في بطنه فسقط على الارض . فرك عينيه في دهشة وعدم تصديق . هذه القدم القوية لا يمكن ان تكون قدم انثى . قدم الانثى كما عهدا (من تجاربه مع المومسات) قدم صغيرة لينة ، يستطيع ان يلويها بيد واحدة . اما هذه القدم فصلبة قوية كالقذيفة .
قال لنفسه الزوجة غير المومس ، وادرك ان تمنع العذراء يزيد ويشد بمقدار طهارتها وجهلها بالرجل . تضاعف زهوه وتأكد انه الفازي الاول ، واطمان الى انها لن تكتشف ضعفه فانقض عليها بوحشية اشد ، فرفسته بقوة اشد .
بعقل الأزواج البطيء بدأ يدرك انها ترفضه ، فالتفت عيناها في ذعر وصاح بصوت غاضب :

— كيف ترفضين ؟

ردت بغضب اشد :

— لست مومسا .

قال بصوت المالك :

— أنت زوجتي .
سألت بدهشة :
— من قال لك هذا ؟
— أبوك وأنا والمأذون .
صاحت بغضب :
— احط صفقة في التاريخ !.
صفعها على وجهها فضحكت . أدركت ان الناس
يفضبون حين نشد الفطاء عن عوراتهم . كان عاريا ، وعورته
سوداء قبيحة ، رمقتها بنظرة متقززة .
اخفى نصفه الاسفل تحت الملاءة في خجل ، كخجل
العدراوات ليلة الزفاف (بسبب فقدان الثقة في النفس) ،
لكنه تذكر انه رجل ، والرجل لا يخجل ، فشد عنه الملاءة ونظر
اليها ، فلم تهتز عينها السودان المرفوعتان الى اعلى .
صاح بغضب :
— أنت لست انثى
الاتهام التقليدي ، يلقي به الرجل في وجه المرأة ، يظن
ان الارض من تحتها تهتز ، وان شيئا لا يبقى لديها . فماذا
يبقى للمرأة (في رأيهم) اذا لم تكن تقدر عورة الرجل ؟
هزت كتفها بحركة لا مبالية وقالت :
— من قال لك انني انثى ؟
قال بغضب :
— أبوك خدعني اذن .
ضحكت :
— عليك ان تسترد منه الثمن .

قال :

— انه نصاب !

قالت :

— كان عليك ان تفحص البقرة قبل شرائها !
كالباحثة عن الفضيحة ، فالفضيحة وحدها هي التي
ننقدها ، هي التي تجعل الجميع يلفظونها ، وهي تريد ان
تلفظ ، ان تصبح بغير اب وبغير ام وبغير اسرة تظللها او
تحميها . فالحماية انما هي الخطر ذاته . انه الاعتداء على
حقيقتها ، واغتصاب ارادتها ووجودها .

ظلت جالسة في مقعدها ، ورانه يشد الملاة فوقه وينام ،
وارتفع شخيرہ بعد فترة ، فأدركت ان شخير الأزواج
كشخير الابهاء ، وتسالت على اطراف اصابعها الى الشارع ،
وحينما رات خيوط الفجر الاحمر في الافق ، تذكرت ان هذا
الصباح هو « الصبيحة » ، وان الفضيحة تنتظر اسرتها ، وان
اباها سيقبل — يتشمم رائحة السدم ، وتفتش امها ملاة
السريـر وقميص النوم ، وينتشر افراد الاسرة في بيت
العرس يبحثون بلا جدوى عن شرفهم غير الموجود .

بقدمين ثابتتين سارت في الشارع ، ترتدي بلوزتها
البيضاء وبنطلونها الاسود ، تدب بقدمها على الارض بقوة،
وتفصل بين ساقيها بثقة ، خطواتها واسعة سريعة
كخطوات الشاب الرياضي ، وحذاءها منخفض بغير كعب ،
وشعرها الاسود القصير متناثر فوق اذنيها وعنقها من
الخلف ، وعيناها السوداوان شديدا السواد ومرفوعتان الى
اعلى ، وانفها المرتفع الحاد يشق الكون بغير رفق ولا تردد،
وشفتاها مزمومتان في اصرار كالغضب او غضب كالاصرار .
حين بلغت شارع القصر العيني ادركت انها تعرف هدفها .
لمحت احدي زميلاتها تهبط من الترام فتراجعت
واختفت وراء الجدار ، راقبت جموع الطلبة والطالبات وهم
يهبطون من الترام او الاتوبيس ويسيرون نحو الكلية . حين
هذا الشارع وابتلعت الكلية الطلبة والطالبات خرجت من
وراء الجدار وسارت حول سور الكلية ، تنظر من خلال
القضبان الحديدية الى باب المشرحة ، والباب المجاور لاتزال
تعلوه اللوحة البيضاء تحمل اسمها ، ورؤوس الطلبة
والطالبات تتحرك من وراء نوافذ المدرجات والمشرحة .
بهية شاهين !

رن الصوت من خلفها فانتفضت . رأت امامها وجه
احد زملائها . تذكرت اسمه . كان هو رؤوف قدرى .
سأله : - كيف حال الكلية ؟
قالت : - لم اعد بالكلية .
سأل : - انت ايضا فسلوك ؟
سألت : - وهل فصل احد ؟

قال : - فصل اربعة وانا خامسهم .
قالت : - وانا فصلت ، ولكن بسلطة اخرى .
ضحك : - تعددت السلطات والفصل واحد .
سألت : - والدكتور فوزي ؟

قال : - كما هو في المستشفى .
اجتازت الكوبري الصغير بين المستشفى القديم
والجديد ، رأت من خلال قضبان الكوبري القارب المزركش
والفتى والفتاة يجدفان ويلوحان للمرأة الواقفة في شرفة
القصر ، مرت من جوارها سيارة سوداء طويلة كسيارات
البوليس ، تبعثها سيارة اسعاف ، شقت ببرقها الحصاد
الزحام الواقف امام باب المستشفى ، وطوابير من رجال
بوجوه شاحبة ، ونساء بجلاليب سوداء ، واطفال بعيون
جاحظة ، وتجار البرتقال بعرباتهم الكارو ، وقطط وكلاب
تجري هنا وهناك بين اكوام القمامة .

دخلت فناء المستشفى الجديد الواسع ، اصطفت فيه
عربات اساتذة الكلية والاطباء ، كالسفن الطويلة الراسية في
الميناء ، او الطائرات القابعة فوق ارض المطار ، ظهرها
المقوس يلمع تحظت اشعة الشمس كالغولاذ ، ورأسها مدبب
حاد كبوز المدفع ، ومؤخرتها طويلة ناعمة كذيل ثعبان، داست
بقدمها بقوة فوق الارض ، كأنما تدوس على كل الذبول
الناعمة ، وكل الرؤوس المدببة الحادة ، وكل الاساتذة والاطباء
بسياراتهم اللامعة الطويلة ، وبطونهم البارزة من الامام ،
واردا فهم المترهلة من الخلف ، ومقاعدهم الجلدية الوثيرة ،
واسمائهم المعلقة فوق اليغظ فسي الشوارع والميادين ،

والشهادات التي رشقوها بالدبابيس فوق ظهورهم ، ورائحة
الدم وعرق المرضى تفوح من الاوراق المالية المكومة في جيوبهم
المنتفخة .

اتجهت نحو العيادة الخارجية ، ولمحت رأس الدكتور
فوزي يطل من وراء طابور الاجساد الضامرة كالهياكل ،
يتساند الجسد فوق الجسد ، وبمشقة تنتصب الساقان
الرفيعتان المعوجتان ، وبمشقة اشد ينتصب الرأس فوق
العنق ، والعيون غائرة والافواه مفتوحة تلهث ، والرائحة
العفنة كرائحة الجسد الميت .

شقت طريقها وسط الاجساد لتصل الى الدكتور
فوزي . ان كلمة شقت هنا غير صحيحة ، اذ الحقيقة انها
لم تكن تلمس الجسد منهم حتى يترنج ، او يستند الى
الجدار ، او يتهاوى على الجسد الاخر ، والعيون الصفراء
تلتفت نحوها بصعوبة ، وتطلع اليها كأنما من وراء سحابة ،
او من عالم اخر ، وبذهول كذهول الغيوبة يدركون انهم
واقفون في الطابور .

رأت الدكتور فوزي جالسا عند رأس الطابور ، السماعه
المعدنية حول رقبتة كحبل المشقة ، والقلم في يده يجري فوق
الورق باسماء الامزجة (رواند وصودا او حديد وزرنيخ) ،
والعرق الفزير يتصبب من جبهته ، وصوته يرن بين الانفاس
اللاهثة والحشرجات والسعال ، خذ نفس ! اكرم نفسك !
قول آه ! قول واحد اثنين ثلاثة اربعة ! مد ايدك ! مد رجلك !
شد حيلك ! .

رآها الدكتور فوزي وهي واقفة ، فترك مقعده واتجه

نحوها باسمها :
- اهلا بهية . . . كنت اريد ان اتصل بك لاطمئن عليك،
لكني لم اعرف عنوانك . هل انت بخير ؟
قالت بصوت هاديء : لا .
التقت عيناهما في لحظة صمت طويلة .
نم سألته : - ما اخبار سليم ؟
قال : - نقلوه من سجن مصر الى سجن طره .
سألت : والزيارة ؟
قال : ممنوعة حتى بالنسبة لأمه .
قالت : سمعت انهم افرجوا عن بعض الطلبة .
قال : ربما ، ولكن امثال سليم لن يخرجوا الان .
سألت : ومتى يخرجون ؟
قال : لا احد يعرف ، وقد يمتد بهم الحال سنين .
صاحت : سنين ؟!
قال بحزن : سنين طويلة لا يعرف عددها احد .
صافحته باصابع مرتعدة وجرت الى الشارع . رأت
الناس سائرين الى اعمالهم او الى بيوتهم كأي يوم عادي
كأن شيئا لم يحدث ، كأن شيئا خطيرا لم يحدث . مع ان
اخطر شيء حدث ، اخطر شيء ويمكن ان يحدث حدث ، ولا
احد يدري ، ولا احد يهتم ، وسارت كالتائهة في الشارع ،
وحين وصلت الى سور الكلية رأت من خلال النوافذ رؤوس
الطلبة والطالبات وهم منكفئون فوق الجثث . كما كانت
تراهم في أي يوم عادي ، وكأن شيئا لم يحدث . ضغطت على
اسنانها في غيظ ، وخبطت الارض بقدميها ، ما أصبح الحياة العادية

بعد الحادث الجلل ، ما افزع استمرار الحياة اللامبالي ،
والسما تبقى معلقة فوق ، والارض تظل ممدودة تحت ،
والسحب تتحرك حركتها العادية المحايدة ، والناس يسيرون
في الشوارع سيرهم اليومي اللامبالي . لماذا لا يتوقف هذا
العيب ؟ خبطت الارض بقدمها مرة اخرى . لماذا لا تكف
هذه الحركة اللامبالية عن الدوران الساحق ؟ لماذا لا يتوقف
الناس لحظة ، ويرفعون رؤوسهم ويرون السلاسل الحديدية
الملتفة حول اعناقهم ؟

بهية !

سمعت الصوت من خلفها فانتفضت . ورات وجهها
يطل من سيارة طويلة سوداء كسيارات البوليس . تذكرته
على الفور . انه الدكتور علوي . هبط من العربة بسرعة واتجه
نحوها . سألها بلهفة :

— بهية ! اين انت كل هذه المدة ؟

— سكنت ولم ترد . شديدا من يدها نحو العربة :

— تعالي معي . اريد ان اتحدث معك .

كان الوقت ظهرا ، والشمس قوية تدخل من نافذة
العربة تحسها فوق ذراعها ساخنة ، وقالت لنفسها : « سنين
طويلة لا يعرف عددها احد » . ورفعت عينيها نحو السماء
بنظرة شاردة تائهة في خضم بلا حدود . هذا الزمن غير
المحدد ، غير المعروف ، كعمرنا ، حين نجهل اليوم الذي نموت
فيه ، ونظن بطريقة ساذجة انه لن يأتي ابدا ، او نحس
بسذاجة اشد انه آت في كل لحظة وفي كل وقت . هذه
الأساة غير المحدودة ، اللانهائية ، نعيشها ، ونحملها فوق

اجسادنا كالعبء الابدي .

لو قال لها انه سيخرج بعد خمس سنوات او عشر او
عشرين ربما خفت المأساة . ربما استطاعت ان تحتمل .
فالانتظار محتمل طالما انه موقوت ، ندرك نهايته ونعرفها ،
ونستطيع ان نحددها بسن القلم . ولكن ان نعيش في قبضة
خطين متوازيين لا يلتقيان ، ان نصبح داخل فكين لا ندري
متى ينقبضان ، فهذه هي مأساتنا ، وسر الحزن العميق في
افراحنا ، وسر المرح اللامبالي في احزاننا ، نعرف اننا نخدع
انفسنا ، واننا في قبضة ارادة اخرى غير ارادتنا ، وانها
ستفتك بنا لا شك في لحظة قادمة لا نعرف متى .

احسنت والعربة منطلقة باقصى سرعتها انها في قبضة
القدر ، وان انحرافة واحدة من السيارة تجعلها جثة مهشمة
في قاع الخيل . والتفتت ناحيته . وادركت انها ليست في
قبضة القدر ، وانما في قبضة هاتين اليدين الكبيرتين
اللتين تقبضان على عجلة القيادة . ان حركة واحدة من
هاتين اليدين كافية لان تسحقها والعربة .

اجتاحها احساس غريب باللامبالاة . وانحرفت السيارة
فجأة وكادت تصطدم بعربة اخرى فلم تهتز . اللامبالاة الحقيقية
حين يدرك الانسان عبث حياته اللارادية ، وعبث موته غير
الموقوت ، وعبث ربطه بالسلاسل الى اجل غير محدد .
اللامبالاة الحقيقية حين يتأكد الانسان من موته في اي لحظة
فلماذا لا تكون هذه اللحظة وليست غيرها ؟

وسمعت صوت الدكتور علوي يقول :

— اود ان اتناول غدائي معك اليوم ، فهل توافقين ؟

قالها بأدب شديد وتردد شديد فدهشت . لو قال لها
في تلك اللحظة : « اود ان القى بك في قاع النيل فهل
توافقين ؟ ل قالت له اوافق . لكنه يدعوها للغداء فحسب .
وبدت لها الدعوة للغداء الى جوار الدعوة للموت تافهة فقالت
بصوت فائر :

— اوافق .

انطلق بالسيارة في طريق طويل تظله الاشجار . لم
تكن تعرف من القاهرة الا اجزاء قليلة ، واحست انها في مكان
لم تره من قبل . لكنها لم تسأل . وظلت صامتة ، تاركة
نفسها لذلك الشعور المريح من اللامبالاة ، وسمعته يقول :

— لماذا تركت الكلية ؟

ردت بصوت ساخر :

— زوجوني .

ضحك ومد يده وامسك يدها :

— اهي نكته ؟

قالت : ليست نكته ، انها الحقيقة .

اتسعت عيناه في دهشة مصطنعة :

— وماذا فعلت به ؟

قالت بهدوء : — هربت .

ضحك مرة اخرى :

— ستطلبين في بيت الطاعة .

ضحكت وحركت وجهها ناحية الشمس . رأى عينيها
السوداوين مرفوعتين ، وانفها مرتفعاً حاداً ، وشفتيها
مزمويتين . سألها :

— وكيف ستعيشين ؟
هزت شعرها القصير المتناثر وقالت :
— سأعمل وأعيش .
قال : سيبحثون عنك في كل مكان .
قالت بثقة : لن يجدوني .
قال : الاختفاء في بلد كالقاهرة صعب ، ثم ان عيونهم
كثيرة ، وكل السلطات ضدك .
رمقت الشارع بنظرة حذرة ، والتفتت ناحيته بعينين
فاحصتين وقالت :
— وانت ايضا ضدي ، اليس كذلك ؟
ابتسم وقال : — كان من الممكن ان اكون ضدك ،
لكنني احبك .
رنت الكلمة في اذنها غريبة « احبك » ، انفرجت شفاهها
لتسأل : « ماذا تعني ؟ » لكنها اطبقت شفتيها في صمم .
وتوقفت السيارة امام بيت صغير من حوله حديقة . اخرج
المفتاح من جيبه وفتح الباب . وجدت نفسها في صاله
كبيرة جدرانها مغطاة بالورق الملون ، والستائر وردية ،
والمدفأة فوقها تمثال لامرأة زنجية عارية ، ولوحة فوق
الجدار لامرأة راقدة عارية . تلفتت حولها في دهشه .
ابتسم قائلاً :
— اشقى طول النهار في الكلية والمستشفى والعيادة
من اجل لحظات سعيدة في مخبأي هذا .
خلع الجاكتة ففاحت رائحة الاوراق المالية من الجيب
الداخلي ، كرائحة المستشفى : مزيج من الدخان والعرق والانفاس

اللاهثة المريضة . حركت رأسها الناحية الاخرى ، فناولها
كاسا وهو يقول :

— هذا نبيذ مصري يسمونه « عمر الخيام » . انه
احسن نبيذ في العالم . ما رأيك ؟
ردت بصوت فاتر :

— لا اعرف ، فانا لم اذق لا النبيذ المصري ولا غير
المصري .

نظر في عينيها السوداوين الحزینتين ثم قال :
— لي فلسفة خاصة في الحياة، وهي ان اعيش الحياة
يوما بيوم ، لا افكر في الامس ، ولا في الغد . وعليك منذ
الان ان تفعل مثلتي .
قالت بهدوء :

— لي فلسفة اخرى
ضحك بصوت عال :
— المرأة الجميلة لا تحتاج الى فلسفة .
لم تضحك . مديده وامسك يدها ولثمها :
— بهية ، انا احبك ، الا تعرفين معنى الحب ؟
ردت بصوت واضح : لا .

حوطها بذراعيه وضغط بصدره على صدرها ، واحست
دقات قلبه سريعة ، وبيده اليسرى امسك يديها الاثنتين،
وباليد اليمنى بدأ يفك ازرار ثوبها . دفعته بقدمها القوية
فسقط على الارض . تهض وهو يحملق فيها بدهشة . كانت
دهشتها اشد . جلس على مقعد بجوار المدفأة واطرق لحظة
ثم قال :

— يبدو انني اخطأت . كنت اظن انك تحبينني .
ردت بدهشة :
— من اين اتاك هذا الظن ؟
قال بلهجة الاستاذ :
— انا افهم المرأة .
سألت : — وبأي عقل تفهمها ؟
فأشار باصبعه نحو رأسه وقال باسمها :
— الرجل له عقل واحد في رأسه . ألم اعلمك ذلك
في المشرحة ؟
ردد بصوت ساخر :
— المشرحة شيء والحقيقة شيء آخر .
قال : — ما هي الحقيقة ؟
قالت : — عقل الرجل ليس في رأسه .
سألها : وأين يكون ؟
ردت بجرأة : — بين ساقيه !
فارتدى الجاكته وهو يقول :
— انت فتاة غير طبيعية .
قالت وهي تبتسم :
— وانت رجل عادي .

دبت بقدمها على الارض بزهو « فتاة غير طبيعية » ،
ومن هي الفتاة الطبيعية في نظرهم ؟ التي تنظر بعينين
منكسرتين ، التي تمشي بساقين ملتصقتين ، المطيعة الخاضعة ،
المبتورة الاعضاء الجنسية ، المنقوعة في الدهانات والمسايق
الفواحة بالعطر ، المشبعة ليل نهار بتأوهات الاغاني وافلام
الجنس ، الحافظة عن ظهر قلب قصص الغرام والعشيق ،
والعاجزة عن ان تخوض تجربة واحدة ، العفيفة الطاهرة
العدراء والمنشغلة طول عمرها بنتف شعرها واغراء الذكر .

سارت بخطواتها الواسعة السريعة ، تتلفت يمينا
ويسارا ، تتفحص وجوه الناس . كان الشارع مزدحما بهم .
ووجوههم كلها متشابهة ، وحركاتهم متشابهة ، واصواتهم
متشابهة ، وعيونهم حين تنظر اليها لا تراها . واحست انها
تفرق في بحر دون ان يراها احد ، ودون ان يميزها احد ،
وان وجهها اصبح كوجه عليه او زكية او نجية او ايفون .

جرت بغير وعي نحو شارع المقطم ، عيناها تبحثان في
الارض والشجر والسماء عن العينين القادرتين على رؤيتها ،
عن الوجه النحيل والملامح المرهقة المحملة بهموم البشر ، نادى
بصوت عال : « سليم ! » لكن الجبل ابتلع الصوت والصدى .
رددت مرة اخرى بصوت عال : « سليم ! » لم يرد عليها احد ،
لكنها لم تستدر لتعود . كانت تدرك انه موجود . كالسماء

والهواء والشمس والقمر والافلاك . ظاهرة من ظواهر الكون .
تتنفسه في كل وقت ، وتحس ملمسه فوق جسدها وهي
سائرة او جالسة او نائمة ، وحين تحمق في السماء ترى
في زرقتها عينيه ، وفي كل قوس مرفوع حاد ترى انفه ،
وفي كل خطوة تدب بها على الارض تسمع وقع قدميه .
وكادت ستدير خلفها لتراه ، لكنها لم تستدر . كانت تعرف
انه غير موجود ، وان السماء خالية منه ، والارض فارغة من
البشر ، والكون اجوف كالصندوق الفارغ ، افرغت منه الهواء
مضخة خرافية .

بهية ! رن صوته من خلفها فانتفضت . لم تجد احدا .
شدت قامتها بقوة . في هذه الحركة القوية ادركت انها
ستذهب اليه ، وانها ستفني حياتها من اجل الذهاب اليه ،
وان شيئا لن يحول بينها وبينه ، لا الموت ولا طلقات الرصاص
ولا الدم ينزف ، ولا الشرط الحاد يقطع اللحم ، ولا الباب
الحديدي العالي ولا القفل .

سارت بخطوات سريعة واسعة كأنما تعرف هدفها .
لكنها توقفت بعد لحظات . لم تعرف الى اين هي ذاهبة .
وحينا تلفتت حولها لمحت رأس ابيها من وراء زجاج نافذة
تاكسي ، والى جواره رأس عمها ، ورأس ثالث غريب برز
امامها من خلال ضباب كثيف فتذكرت ليلة زفافها . اختفت
وراء جدار وهي تلهث . فمرق التاكسي بالردوس الثلاثة في
بحر العربات وابتلعه الخضم . خرجت من وراء الجدار
وسارت في الشارع بساقيها القويتين المشدودتين ، ووقع
قدميهما في اذنيهما تعرفه ، القدم وراء القدم ، تدب بهما

على الارض ، تتحدى الارض ، ترفع قدما الى اعلى ثم تهوى
على الارض ، كأنها ستخرق الارض ، وتتحدى العالم كله
من حولها ، من يقترب منها تستطيع ان تقذفه بقدمها ، ومن
يلمسها او يحرك الهواء من حولها تستطيع ان تدب اصابعها
في عينيه ، ومن يقف في طريقها تستطيع ان تشق بطنه
بمشرطها وتقتله . اجل تقتله . كانت قادرة في تلك اللحظة
على اقتراف اي جريمة قتل ، بل ان شيئا لم يكن يخمدا النار
المتأججة في نفسها الا جريمة قتل .

الساعة الثالثة صباحا ، تلك الساعة التي تسبق ظهور
اول خيوط الفجر ، والظلام يخيم على الحوارى الطينية
الضيقة ، والبيوت القديمة المتلاصقة المتساندة بعضها فوق
بعض كهياكل الاجساد المريضة ، وانفاس حي الدراسة
المزدحم في الحجرات الضيقة تهب من شقوق النوافذ ساخنة
محملة بتراب الجبل ورائحة العرق والبصل والكشري والسمك
المقلي ، والحي الذي يضج في النهار كخلية النحل مستغرق
في النوم ، نوم الاجساد المكدودة المهددوة يكاد يشبه الموت،
والصمت لا يمزقه من حين الى حين الا نباح كلب ، او صراخ
رضيع ، او عواء قط .

في تلك الساعة تكون الحركة على اشدها داخل الحجرة
في بדרوم البيت القديم ، وتروس المطبعة الصغيرة تضغط
الحروف السوداء فوق الصفحة البيضاء ، وحين تمتلئ
الصفحة تنقلب وتسحب التروس ورقة جديدة ، سرعان ما
تمتلئ بالسطور السوداء ، فتقلب وتظهر على الفور مكانها
الورقة الجديدة البيضاء ، والوجوه الثلاثة النحيلة مرهقة
شاحبة ، والعيون الست شاحبة تتابع حركة الورق
الدائرية ، ترتفع بينها عينان سوداوان الى اعلى ، ارتفاعتهما
مألوفة ، وسوادهما شديد ، والانف مرتفع حاد يشق الكون
نصفين ، والشفتان مزمومتان في اصرار وغضب .

بهية ! يرن الصوت في اذنيها ، فتتلقت حولها ، وترى
رؤوف يرص الورق في الحقيبة الجلدية ، وفوزي يضع
المطبعة داخل تجويف في ارض الحجر ، وتعود الارض
مستوية كما كانت بالواح الخشب . ويثن في الصمت صوت
الباب الخشبي الصغير وهو يفتح ، وتدلف منسه الاجسام
الثلاثة ، واحد بعد الآخر ، لا يمكن التعرف عليها من بينهم ،
فالظلام يخفي الوجه ، وملامح الجسد في الظلمة متشابهة ،
والساقان داخل البنطلون عضلاتهما قوية مشدودة ، واليد
اليمنى تتدلى منها حقيبة جلدية منتفخة .

وفي الميدان الصغير ينحرف رؤوف الى اليمين وابتلعه
الشارع المظلم ، ويستمر فوزي متجها الى الميدان الكبير ،
اما بهية فتسير بخطواتها الواسعة السريعة نحو الاتوبيس
الراقد في الموقف ، صدرها يعلو ويهبط ، وانفاسها لاهثة
تقطع ، والحقيبة الجلدية المنتفخة فوق صدرها ، تحوطها
بذراعيها كذراعي الام تلتفان حول طفلها ، وفي المحطة تهبط ،
تعرف هدفها ، وتعرف اين تقذف بالحروف الملهبة فوق
الرؤوس ، ايها الناس استيقظوا ، افتحوا النوافذ ،
وافتحوا عيونكم وانظروا السلاسل الملتفة حول اعناقكم
وافتحوا اذهانكم واعلموا ان عرق جبينكم يسلب ، وزرعكم
ينهب ، ولحمكم يؤكل ، ولا يبقى لكم الا العظام ، هياكل
عظمية متراسة في الطوابير ، يسند الواحد الآخر ، والانفاس
تتمزق بسعال متقطع ، والدم احمر ينزف من جرح غائر في
الصدر .

تقذف بالحروف والكلمات في الوجوه ، وتعود بالحقيقة

فارغة ، متخفة من العبء ، تقفز فوق الارض كعصفور ،
وتدندن لنفسها باغنية قديمة وبحركة الاطفال الفرحين
بالعودة من المدرسة تهز حقيبتها الفارغة ، وتقذفها في
الهواء ، ثم تلتقطها بيديها الاثنتين ، وتلمح الرجل ذا
العينين المتجسستين قادما بمشيته الحذرة ، فترمقه بنظرة
جانبية ، وحين تحس به وهو يتعقبها تدخل في طريق
اخر ، وتضلله ثم تخرج الى الشارع الواسع ، يتلعبها الزحام
كالمحيط ، وتسير في الشارع بعينيها المرفوعتين ، ترقب
الناس وهم يدورون في طاحونة حياتهم اليومية من اجل
لقمة العيش ، والترام بسلمه المائل تحت الاجساد يصلصل
صارخا بالعبء ، وتدور عجلاته الحديدية فافرة فاها لاي
قدم تسقط . وعلى الرصيف تجلس العجوز العمياء باسطة
يدها المعروقة الى الامام ، واطفال يتطلعون الى العالم بعيون
صفراء قافرين افواههم لاي لقمة تسقط ، ومن نوافل الترام
والاتوبيس تلمح الرؤوس المتشابهة والاعناق المشنوقة ياربطة
العنق والعيون الجاحظة المدعورة ، والتمتمات الخافتة
بايات الكرسي والنفاثات في العقد . ومن حين الى حين
تمرق سيارة طويلة سوداء كسيارة البوليس ومسكن خلفه
الزجاج اللامع تلمح الوجوه السمينة المكتظة باللحم بعيونها
الضيقة المتلصصة .

حين يهبط الفلام تعود بخطواتها الواسعة السريعة الى
حجرتها الصغيرة فوق السطح ، تسمع صوت انفاسها
اللاهثة كنشيج متقطع ، وخيوط العرق تجري فوق وجهها
وتحت ابطها ، تغلق الباب من خلفها بالذراع الحديدية، وتحكم

اغلاق النوافذ ، ونتمدد فوق السرير الصاج الصغير تحلق في الظلام . يبرز امامها الوجه النحيل المرهق ، والعينان السوداوان الزرقاوان القادرتان على رؤيتها ، تهتف بصوت خافت : « سليم ! » لكن احدا لا يرد . تدرك انها وحدها فتنهض وتشد اللوحة من تحت السرير ، تسندها الى الجدار ، وتلتف اصابعها حول الفرشاة تضغط عليها، وتحس للضغط لذة غامضة تمتد من اصابعها الى ذراعها الى عنقها الى رأسها كأنما خلال سلك كهربى مشدود .

ان من يراها وهي جالسة في الظلام في تلك اللحظة يندهش . عضلات جسدها مشدودة كالمصلوبة ، وعيناها السوداوان تابتتان فوق خطوطها ، ورأسها فوق عنقها ثابت، وذراعها ثابتة ، واصابعها حول الفرشاة ثابتة ، وساقاها وقدماهما ثابتة كتمثال من الجرانيت .

كم من الوقت يمضي وهي على هذا الحال . لا احد يدري . قد ينقضي الليل كله وهي جالسة لا تتحرك ، لا تضيف خطأ واحدا الى اللوحة ، لكن عينيها لا تتحولان عن خطوطها، تعيش حياتها مرة اخرى ، وتشهد لحظات عمرها وهي تمر امام عينيها لحظة بعد لحظة ، كشريط سينمائي .

وقرب الفجر ، تمتد يدها بالفرشاة ، تحركها فسوق اللوحة ، تغير الخطوط وتصنع في حياتها لحظات اخرى، لحظات جديدة هي التي تصنعها باراداتها ، بتلك الحركة الارادية فوق الورق ، في اي اتجاه وفي كل الاتجاهات، حركة قوية حرة ، تحطم بها الارادات الاخرى ، وتصنع بنفسها خطوط حياتها ، وشكل ملامحها ، وتجعل عينيها اكثر سوادا،

وانفها اكثر حدة وارتفاعا ، وشفتيها مزمومتين في غضب
او اصرار اشد .

حين تشعر بالتعب ، تترك جسدها يسقط ، ويستلقى
ممدودا فوق السرير الصاج . يرتجف من البرد تحت
البطانية البالية الوحيدة ، تشدها فوق راسها ومن حول
قدميها الثلجيتين ، وتصطك اسنانها ، بذلك الصوت المتقطع
الخافت كصووة عصفور وليد سقط من عش امه في ارض
عراء ينتفض الانتفاضات السريعة ، وعيناه الصغيرتان
الدامعتان تلمعان في الظلام بالنظرة اليثيمة المدعورة .
وجرت الدمعة الساخنة من زاوية عينها فوق الوسادة ،
احسّت رطوبتها الدافئة تحت خدها واطلت برأسها من تحت
الغطاء لترى امها ، الوجه الطويل النحيل كوجهها ، والعينان
السوداوان الواسعتان ، والصدر ذو الدفء السخي . دفنت
راسها في صدر امها تتشممها ، وتبحث في جسدها عن فتحة
او تجويف يحتويها ، تكمن فيه بعيدا عن العالم ، بعيدا عن
القوى المتربصة بها ، تقبع كالجنيين الامن ، وحنين غريب عنيف
للامان يرج جسدها ، حنين للتكور داخل الرحم . داخل
الطمأينة . داخل السكون بغير صوت وبغير حركة . والتفت
ذراعا امها الكبيرتان حولها بقوة غريبة ، تشدانها اليها مرة
اخرى ، وبكل قوتها تحاول ان تجعل جسديهما شيئا
واحدا ، بلا جدوى ، فالانفصال الابدي حدث في لحظة
مضت ولن تعود .

بهية ! رن الصوت في اذنيها ففتحت عينيها . لم تجد
احدا ، وضوء الشمس ينفذ من شيش النافذة المتآكل .

وسعت الطرقت البطيئة التي تأتيها كل صباح من وراء الباب ، ورات الشيخ العجوز بعمامته وقفطانه ، والعينين الرماديتين ذاب سوادهما في بياضهما ، والاصابع الفليضة السمراء من حول السبحة الصفراء تتحرك بسرعة وانتظام كالرعدة الدائمة ، تماثلها رعدة أخرى في شفثيه الرفيعتين الصفراوين ، تهسهس وتبسمل وتبسبس بكلمات مبتورة وحروف لا يسمع منها الا حرف السين طويلا وممتدا كأنه صفير يصاحب الشهيق والزفير .

حين رآها اتسعت الفرجة بين شفثيه الجافتين وظهرت اطراف اسنانه الصفراء المتأكلة ، وهمس بصوت كفحيح ثعبان نائم : « هل صحيت ؟ » .

ردت بصوت ضجر : لا . واغلقت الباب . سمعت انفاسه تهسهس من خلف الباب . في زمجرة خافتة ، ذكر عجوز ذبح الدخان صدره ، ونزف عمره في فراش اربع زوجات باردات عفيفات انجبت كل واحدة منهن عددا من الاولاد والبنات ، مات نصفهم وتزوج النصف الآخر ، ولم يبق معه من زوجاته الا امرأة عجوز تتسند على الجدران ، وتصنع له الشاي اسود ، وتعد الجوزة في المساء ، وعلى السرير الخشبي الكالح يرقد الى جوارها ، ويدس اصابعه الفليضة بين ثدييها المترهلين ، ويهتز جسداهما الضامران اهتزازات واهية ، وانفاسهما الباردة ذات الرائحة الراكدة تلفحها نفحة دفء خافتة ، سرعان ما تتلاشى كحشرة الاحتضار الاخير ، وتتركهما فوق السرير الخشبي العتيق كالجثتين الهامدتين .

تلف اللوحة بالورق ، وتدلف من الباب الخشبي الصغير
بجسمها الطويل المشقوق ، وساقها المشدودتين داخل
البنطلون ، وتسير في الحارة ، القدم تدب وراء القدم والساق
تنفصل عن الساق بمسافة كبيرة مرئية ، تخلق فيها
عيون رجال الحارة في الدكاكين ، وعيون النسوة من فرجات
الابواب وشقوق النوافذ . امرأة هي ام رجل ؟ لولا النهدان
الصغيران النافران تحت البلوزة لا قسموا انها رجل . وما
دامت هي امرأة فقد اصبحت الحملقة مشروعة ، واصبح
جسدها نهبا للعيون الجائعة المحرومة ، يحلقون ، ويتهامسون
ويتجرا احدهم فيضحك شاهقا بصوت داعر ، ويلق اخر
بلفظ ناب ، ويتشجع اطفال الحارة فيجسرون وراءها ،
يتراقصون باردافهم ، ويكشف الصبيان منهم عن عوراتهم ،
ويقذف احدهم بحجر من خلفها ، ويضع الاخر يده في فمه
ويصفر صفارة طويلة ، ويقهقه الرجال الجالسون على
المقهى باصوات مبحوحة ويخبطون افخاذ بعضهم البعض
يكفوف خشنة مشققة كالارض الظمأى ، وتضرب النسوة على
صدورهن المتهدلة من خلف النوافذ شاهقات بتلك البحة
الانثوية المكبوتة الى الابد : شوفوا الخوجايا ! .

تشق طريقها بين النظرات والضجيج والتعليقات
النايبة ، ترفع عينيها السوداوين الى اعلى ، وتزم شفتيها
في غضب يتحدى القدر . وحين يختفي جسدها في الشارع
الواسع تعود الحارة الى حياتها الطبيعية ، وترتفع طلقات
الحديد من دكان السمكري ، وطرقعات الاكواب والطاولة
في المقهى ، وصياح الاطفال والصبية وشجار النسوة من

وراء الشفوف ، واصوات الرجال الخشنة تقسم بإغلف
الايمن وبالطلاق بالثلاثة ، وتتصاعد رائحة السمك المقلي
والفلفل والكشري ، وتتراقص حبات السبحة بين اصابع
الشيخ العجوز ، ويفترش سجادة الصلاة امام النافذة، وحين
يركع يحتك جسده بصوف السجادة فتجتاحه الرغبة المكبوتة،
وتطل عيناه المتأكلتان على الحارة تترقبان ظهور اي جسد
ملفوف .

حين اصبحت في الشارع الواسع احست بضربة
الهواء البارد على خديها الساخنتين كالصفعة المفاجئة ،
تقلصت عضلات وجهها وسرى في جسمها ذلك الاحساس
الغريب بالقرب من الخطر . رمقت الشرطي الواقف بطرف
عين ثم دخلت الى المحل الصغير . نزع الورق عن اللوحة،
وابتسم الرجل العجوز كعادته حين يتأمل لوحاتها ، ودس
يده المعروقة في جيبه واخرج ثلاثة جنيهاات ، عدها واحدا
واحدا ، ثم ناولها لها وهو يعدها مرة اخرى واحدا بعد
الآخر .

خرجت الى الشارع ، فادركت على الفور ان عينين
ترقبانها ، وان قدمين تتبعان قدميها . تسللت الى انفها
رائحة الخبز ، فدخلت واتهمت قطعة الكعك التي تحبها .
وقفت امام الخزينة لتدفع فلمحت العينين الضيقتين من
خلفها في المرأة المواجهة . خرجت الى الشارع . حركت
يدها لتنادي تاكسيا ورمقت الساعة فوق معصمها . وقف
التاكسي امامها فركبت . عند ثنية الشارع التفتت الى
الخلف فرأت العينين الضيقتين خلفها داخل تاكسي . هبطت

في ميدان العتبة . كانت تعرف ان رؤوف وفوزي ينتظرانها في ذلك البدروم ، لكنها لم تذهب . ظلت تتجول في شارع الموسيقى ، تراقب النساء والفتيات وهن يسرن بسيقانهن السمينة الملتصقة ، يرجمن الشارع باجسادهن واردافهن البارزة من تحت الفساتين اللامعة ، وعيونهن المكحلة ترمق الفترينات بنظرات مسعورة ، ونهم لشراء الملابس، وقمصان النوم العارية ، والشباشب المفتوحة ، وادوات الزينة ، والعطور ودهانات البشرة ، واصواتهن الحادة ترن من الدكاكين ، وطرقعات اللبان ، وشهقات الاعجاب بالمودلات الجديدة ، وقعقات الكعوب العالية المدببة تحت الاجساد المحملة بلفائف المشتريات، من كل لون وصنف .

تزم بهية شفيتها في غضب ، فالرغبة النهمة للاستهلاك تعويض عن الحرمان الابدي ، والعيون المتأججة بالشبق من تحتها برود كالصقيع ، والشعور المتموجة كالحرير من تحتها مخ املس كمخ الارنب لا يعرف من الحياة الا الاكل والتناسل . خرجت الى الشارع الواسع حين بدات الشمس تغرب . واكتست السماء والارض والبيوت والاشجار بحمرة شاحبة يزداد شحوبها لحظة بعد لحظة كوجه يضيع منه الدم في احتضار طويل بطيء . ثم اضاءت مصابيح الشارع، وانعكست مئات من دوائر الضوء الابيض على الاسفلت وفاترينات المحلات وزجاج العربات ووجوه الناس ، وتالق كل شيء في النور الابيض ، وسمعت صوت ضحكة ناعمة ورات فتاة تتأبط ذراع شاب ، وذراعه الاخرى تحوطها . ابتسمت لهما وسرى في جسدها المرهق احساس مفاجيء بالنشاط . ملأت

صدرها بهواء الليل الرطب ، ولمعت عيناها السوداءوان
كفصين من الماس ، تراقبان في سرور الاطفال كوى النور
المعلقة فوق المحلات كالبالونات الملونة ، والعربات تجري فوق
الاسفلت اللامع ، وزجاج النوافذ يبرق كالمرايا ، والناس
بملابسهم الزاهية يتحركون في الضوء الابيض كأسراب من
الغزلان ، واطلق طفل صاروخا صغيرا تطاير في الجو كملايين
الذرات اللامعة الملونة .

سمعت صوت ضحككتها ترن في اذنيها كضحكتها وهي
طفلة ، وكادت تقفز فوق الارض قفزات الاطفال ، لكنها رأت
العينين الضيقتين امامها . استدارت فرات عينين اخريين
تراقبانها ، انحرفت الى الشارع الجانبي عن يمينها فاذا
بالعينين تسدان عليها الطريق ، اتجهت بسرعة الى الحارة
ناحية اليسار فبرز لها من الظلمة جسد الشرطي السمين
بازراره اللامعة والسلاح المذنب يتدلى من حزامه الجلدي .
توقفت . تلفتت حولها بحركة سريعة . تلك الحركة
حين يصبح الانسان مهددا ، وقوى معلومة ومجهولة تتربص
به ، تنتهز الفرص لتقضي عليه . هذه الحركة السريعة في
العينين ، في كل الاتجاهات ، تبحث عن اليد التي ستطعن
من الخلف او من الامام او من الجانب الايسر او الايمن ، وهذه
الحركة الدائبة في الرأس ، كل خلية في الرأس تتحرك ،
تفكر ، كيف ينجو الانسان من الخطر المتربص ، كيف يحمي
جسده من الطعنات ، ويحملة بعيدا في حذر ، هذه الانقباضة
الحذرة في العضلات ، هذه الدقة القلقة في الصدر ، دقة
الدم الصاعد الهابط ، تلك الحركة السريعة المنتظمة ابدا ،

دقة القلق ، ومعها دقة الاحساس بالحياة واصابعها الطويلة
الرفيعة ترتعش ، رعشة سريعة غير مرئية ، وقدمائها ثابتتان
فوق الارض ، وخطوط جسدها ثابتة ، ذلك الثبات القوي ،
ثبات الارض تحت قدميها ، لكن تحت هذا الثبات حركة
سريعة محسوسة ، كذبذبات الهواء في الاذن ، وذبذبات الدم
تحت جدران الشرايين ، ذبذبة سريعة تبدو من الخارج
ساكنة ، ولكن تحت هذا السكون تختفي الحركة العنيفة
المروعة ، حركة الصراع بين المقاومة والاستسلام ، الحركة
الوحيدة التي يدرك بها الانسان الفرق بين حياته وموته .
لحظة رهيبة ، وبقدر ما ترهبها تعشقها ، وبقدر ما تهرب
منها تسعى اليها ، فهي اللحظة الوحيدة التي تدرك فيها انها
حية حقيقية ، والاحساس بالحياة لا يحدث الا في مواجهة
الموت ، كالابيض لا يكون ابيض الا في مواجهة الاسود .

انفجرت شفتاها عن ابتسامة ، ولعت عيناها بالبريق ،
فهذه اللحظة هي هدفها ، كانت تريدها من البداية ، وتسير
نحوها بثبات واصرار ، تدرك انها لا تسير الا الى الخطر ،
حافة الخطر ، تلك المساحة الصغيرة التي لا تتسع الا لقدة
واحدة ، معلقة في الفضاء ، من فوقها السماء ومن تحتها
الهاوية السحيقة ، ويصبح الانسان مشدودا بين قوتين
رهيبتين ، قوة تشده للسقوط في القاع ، وقوة تشده
للانطلاق في السماء .

عن يقين كانت تعرف انها لن تسقط في القاع . لن
تستسلم . لن تكون بهية شاهين ، ولن تعود الى الوجوه
العادية ، ولن تفرق في بحر الاجساد المتشابهة او تسقط في

قبر الايام العادية .

رفعت عينيها السوداوين الى اعلى ، وشدت عضلات
ظهرها وساقها ، وتقدمت نحوهم بخطوتها الواسعة، تدب
كل قدم على حدة فوق الارض ، وتفصل بين ساقها بثقة
وحرية . حين اصبحت امامهم وجها لوجه قالت بصوتها
الهاديء الواثق :
- هيا بنا .

تقدم نحوها احدهم ، ووضع الحديد حول معصمها
وقفله بمفتاح وضعه في جيبه . سارت امامهم بخطوات
سريعة ، عيناها تسبقان قدميها تبحثان بين الوجوه عن
الوجه النحيل والملامح المرهقة المحملة بهموم البشر، والعينين
القادرتين على التقاط وجهها من بين الوجوه وانتشال
جسدها من بين ملايين الاجساد السابحة في الكون .
وحين رآته امامها صاحت بصوت فرح كصوت الاطفال :
- سليم !

ومدت ذراعيها كتلتفا حوله ، لكن ذراعيها لم تمتدا ،
وارتعشت يداها من تحت الحلقة الحديدية المغلقة ..

مؤلفات الدكتورة نوال السعداوي

من منشورات دار الآداب

* امرأتان في امرأة

* موت الرجل الوحيد على الأرض

* امرأة عند نقطة الصفر

* الأغنية الدائرية

* موت معالي الوزير سابقاً

* الخيط وعين الحياة

* الغائب

* كانت هي الأضعف

* مذكرات طيبة

* تعلمت الحب

* حنان قليل

* لحظة صدق

* جنات وإبليس

دار الآداب

متف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

صرب ١١٢٣ - ١١ بيروت